الميلودي شغموم

عين الفرس

مكتبة الأدب المغربي

دار الأمان
الرباط

الميلودي شغموم

عين الفرس

رواية

دار الأمان
للنشر والتوزيع
4، زنقة المامونية
الهاتف 232.76 - الرباط

تصميم الغلاف
الأستاذ خنيجر محمد

الطبعة الأولى 1408 ــ 1988
حقوق الطبع محفوظة

رأس الحكاية

– ع –

الوقائع الغريبة التي سأرويها لكم في هذه الحكاية – وضمنها قصة الولد الرهيب والبنت العجيبة – وقائع حدثت سنة 2081 باحدى الامارات الكئيبة. في هذه السنة بالضبط تحول ما كان يسمى من طرف بعض المؤرخين الحاليين «بالوطن الكئيب» الى امارات كثيرة، انهارت «دول» وتحولت «بلدان» عظيمة الى امارت بديلة، كما هي حال العمران الذي يصنعه الانسان !...

وأنا، في الواقع، لست متأكدا، تمام التأكد، من حدوثها خلال تلك السنة بالضبط. وكل ما أستطيع قوله أني أدركتها آنذاك... فأنا، سبحان مدبر الخلق، قد ولدت سنة 661، ومت بعدها بعشر سنوات، ثم ولدت سنة 842، ومت بعدها بعشرين سنة، ثم ولدت سنة 1830 ومت بعدها بثلاثين سنة، ثم ولدت سنة 1967 ومت بعدها بأربعين سنة، ثم ولدت سنة 2041، ولا شك أني سأموت، ان شاء الله، بعد عشر سنوات، أي سنة 2091 ! بذلك، إذا حسبتم سنوات حياتي، سيكون عمري، والحمد لله، مئة وخمسين سنة ! أما إذا حسبتم فترات سباتي فاني، والأعمار بيد الله، سأكون قد عمرت قرونا ! ...الا أني، في كلتا الحالتين سأكون شيخا ضعيف الذاكرة والعقل والخيال، هرما ميالا الى الخلط بين التواريخ والاحداث، وكذلك بين المصادر والأسماء، ناهيك عن الزمان والمكان، وعن الباطن والظاهر، وعن الحلم والواقع، وعن الحقيقة والوهم، وعن الماضي والحاضر والمستقبل... فهذه ارادة الله في خلقه، وعلى شباب اليوم المعول في تصحيح مثل هذه الأخطاء التي يقع فيها السلف. وعلى كل حال، فقد أدركني ما يسميه العجم «بالتاريخ»، سنة 2081، في واحدة من هذه الامارات الصغيرة الكثيرة التي تشبه رقعة الشطرنج، منظورا اليها من الطائرة. وفي هذه الامارة وقعت هذه الحكاية.

في احدى الليالي الممطرات الباردات من تلك السنة وما أقلها خلال مواسيم الجفاف، أمر الأمير، وارث حظه الأميرال أبو السعد بنسعيد، باحضاري الى قصره، وكنت اذاك قد اعتكفت، مدة عام، في بيتي مكثرا من الصلاة والصيام والتأمل في أحوال العمران وتبدل بنيانه وفي أصل الطبيعة وألوانه منتظرا أن ألقى الله والجسد قد خفت أدرانه عاملا على استخلاص العبرة من متاعبه واخفاقاته وأحزانه، ولكن ـ

أجلسني الأميرال، أصلح الله أمره، بين غلمانه ومؤنسيه من شعراء ومغنيات ومهرجين وعلماء وهو يسألني عن أحوالي فوصفتها له بكثير من العناء والحزن والخوف الى أن تعب وكاد يغضب فتدخل كبير مؤنسيه، وكان الأميرال قد أشار الى احدى المغنيات فأخذت تعد محاسنه بشكل شديد المبالغة وكأنها تهجوه بينما انطلقت ألسنة الحاضرين بالثناء على المغنية:

ـ الله، الله !
ـ لا فض فوك !
ـ يا سلام !
ـ يا ليل، يا عين !...

قال الكبير:

ـ يا غبي، ان الامير يريد أن يعرف لماذا انقطعت عن مجلسه، فهل لك من حجة تطمئنه أو عذر يعيد الثقة الى نفسه ؟

استجمعت قوتي، مستعينا بتراث المؤنسين، بعد أن أدركت زلة لساني الذي ألف الخبث والمغامرة من تعاطيه الحكاية منذ زمن طويل:

ـ أرجو من سيدي كبير المؤنسين أن يشرح لمولاي أني في هذه السن المتقدمة من عمري ـ الذي أتمنى أن يطول في خدمة الأمير ـ لم أعد قادرا على الامساك برأس الحية.

ـ ومتى كنت مروض ثعابين !؟
ـ أعني بالحية الحكاية يا... سيدي !

قال، وهو يحاول أن يسيطر على استغرابه:

ـــ الامير يريد أن يفهم لماذا لم تعد تأتي الى مجلسه لتحكي له حكاياتك الطريفة ولا يهمه أن تكون قادرا على الامساك برأسها أو ذيلها !

قلت، وأنا أجاهد لأتغلب على غضبي واضطرابي:

ـــ ياسيدي، إشرح له، أرجوك، أن الحكايات مثل العفاريت والحاكي مثل الساحر، إذا لم يتقن علمه أو تسرب اليه الضعف تعرض للهلاك وخاب مسعاه.

قال وقد علا اضطرابه على اضطرابي :

ـــ هذا لن يقنع الامير، وأنا نفسي غير مقتنع به، وقد يشعر مولانا بأنك تقارن قدرتك بقدرته اذ تجعل نفسك محل الساحر، أي صاحب قدرة على أصعب المخلوقات، وهذا، لعمري، امتياز خاص منذ القديم، بالأمراء والملوك، ابتداء من سيدنا سليمان وانتهاء بأميرنا العظيم، أما الحكاية، من حيث نسبتها اليكم، فنحن نعلم أنكم لا تحكون الا ما حكاه قبلكم الكثيرون...

ـــ وما سيحكيه بعدنا الكثيرون...

ـــ فكيف تزعم ما ليس في امكانك أم ترى تأخر العمر قد أدى بك الى التخريف ؟

وقلت مستدركا:

ـــ والله ما ادعيت شيئا من هذا، وانما قصدي أن الحكي يحتاج الى قوة لم أعد أملكها كاملة، وأما الحكايات فلسنا صانعيها اذا لا أحد يعلم من يصنع الحكاية حقا، ولكننا نجعلها في الحال وكأنها لم تحك من قبل أو كأنها تحكي في زمن لا يتبدل بحيث تبدو وكأنها تحكى لأول مرة وتبدو وكأنا خالقوها !

قال متظاهرا بالفهم:

ـــ لا أظن أن الأمير سيفهم شيئا مما قلت، وأنا نفسي لم أفهمه كله : ألا تجد طريقة أسهل !؟

قلت في تعاطف كاذب:

ــ قد يفهم الأمير احساسي ان لم يفهم فكري، فأنا كلما هممت بقول حكاية شعرت بالرهبة، كنت في سالف الزمان أحكي وكأني أشرب القهوة المرة، أما اليوم فاني عندما أمد يدي الى الحكاية لأفتحها أشعر بأني أفتح بابا للدخول الى بحر الظلمات، أشعر بأن المكان ينهار والزمان...

قاطعني:

ــ يارجل ماذا تريد أن تقول، أتريد اقناع أمير أم تريد اغراقه ! ؟

كدت أنفجر ضحكا، فهذا السيد يتظاهر بأنه أكبر من الأميرال ويؤاخذني بما يفعل، قررت أن أظل أكبر منه :

ــ صبرك سيدي الكبير، أفهمه أن الحكاية لا يمكن أن تنوب عن التاريخ ولا التاريخ يمكن أن ينوب عنها، كما لا يمكن أن ينوب العقل عن القلب أو العكس...

ــ ويحك !

ــ قل له إن الحكاية ليست الخرافة، لا يمكن للمرء أن يتسلى بالحكاية، كما لا يمكن أن يتسلى بالتاريخ، اني تعبت من المساهمة في نشر الخرافة ما دام لا أحد يفهم لأي شيء تصلح الحكاية...

ــ احذر !

ــ ان الحكاية تجربة الكلي واللا مشروط، قل له...

أوقفني وهو يشتاط غضبا:

ــ ترفق بنا وبنفسك أيها العجوز، أتريد أن تحرمنا القوت والحرية ؟ ألا تدري، ياعدو الله، أن الجفاف أكل الأخضر واليابس !؟

تنفست الصعداء:

ــ والله ما أردت غير خير هذه الامارة، فقل له ما تشاء، ان لم تفهم بعد أننا في سنة 2081 وأني سأموت بعد عشر سنوات !؟

كانت المغنية قد توقفت عن الشدو بمحاسن الأميرال، فنظر الي وكأنه

تذكر سؤاله الذي لم أجب عنه بعد، ولكن الكبير الذي يعرف كل ما يدور بخلد أميره ناب عني:

ـــ خادمكم الحاكي، يامولاي، يعتذر عن غيابه بسبب ضعف صوته الذي نتج عن تقدمه في السن وتزايد وهنه العام.

قلت للكبير في نفسي:

ـــ تكلتك أمك أيها الجاهل، أبأمثالك يريد الأمير أن يجدد امارته !؟

فنطق الأميرال:

ـــ ضعف الصوت !؟ أدباؤنا دائما متخلفون عنا، انهم محافظون أو جاهلون بمنجزاتنا العظيمة، نحن أيها الحاكي امارة تعيش آخر مبتكرات التكنولوجيا، أين كبير المهندسين ؟

وجيء بكبير المهندسين، وهو روسي عظيم الخلقة، فوضع أمامي جهازا صغيرا يشبه رأس فرس بعين واحدة، فقال الأميرال:

ـــ الآن يمكنك أن تحكي بدون عناء، تأكد من أن صوتك سيصل، بدون أدنى ازعاج، الى كل أنحاء الامارة بفضل (عين الفرس) هذه !

سخرت في قرارة نفسي من هذا التوظيف العجيب للتكنولوجيا، ولكني أدركت أن التعامل معها كطرفة هو الذي يلزمني الآن، كما يلزم الكثيرين مثلي، من الاستمرار في أداء أدوارهم التقليدية، ولا شك أن الفضل يرجع اليه في بقاء العديد من مظاهر الحياة القديمة !

استعجلني الأميرال:

ـــ متى تبدأ اذن !؟ احك أي شيء، لا يهم ان كنا سمعناه أو لم نسمعه بعد ! كيف أرضي نفسي والأميرال: أنا لا أستطيع أن أحكي «أي شيء»، بل أستطيع إذا قدرت على أن أجعل منه شيئا ؟ دارت في رأسي «عين الفرس»: لماذا لا تكون هذه الطرفة البداية ؟

قلت:

ـــ حاشى يا مولاي، سأحكي لكم حكاية جديدة تماما...

تدخل الكبير هامسا:

ــ كفاك ادعاء، أتكذب على الأمير !؟

فأضفـــت:

ــ وان كنتم قد أنصتم اليها مرارا من غير أن تـمعوها مرة واحدة، فليس في هذه الدنيا، منذ بدايتها سوى حكاية واحدة تروى بالعديد من الصيغ، وقد رويت لكم بعض صيغها من قبل...

نهاني الكبير:

ــ احذر خبث نفسك يا خبيث، فأنت تحت رحمة اغرائين: خبث الحكاية التي ستبدأ وخبث نفسك المولعة بالخرافة، ويمكنك أن تضيف اليهما خبثا ثالثا: السلطة ! لو كنت مكانك لرحمت ذاتي...

خفت من هذا الكبير الذي بدأ يفهم فجأة، الا أنه أضاف فاطمأن قلبي:

ــ هذا ما تسربه الى نفسك في كل حين، ونحن نعرف أنه جزء لا يتجزأ من تركيب الحكاية وعلى الرغم من أننا لا نفهمه جيدا فاننا نعول عليه في مساعدة الرقابة، أي في تسهيل مهمتنا !

تجاهلت التهديد:

ــ ليهنأ مولاي وأهله ورعيته بالأمن والسعادة التي تملأ القلوب والبيوت، بالرغم من أن الجفاف يلتهم الماء والهواء، والحمد لله، الذي لا يفنى ولا يموت، على نعمه التي جعلت امارتكم تشبه الملكوت، على الرغم من كثرة الملحدين، والصلاة والسلام على النبي الذي خلصنا من الرهبوت، على الرغم مما لكم من جبروت، وبعد، فليسمح مولاي بسؤال صغير قبل الشروع في الحكاية:

ــ ألا يتفضل مولاي فيحصر مدى «عين الفرس» في هذا المجلس العامر، الغوغاء قد تسيء الفهم وتخلط بين الحكاية والواقع !؟

قال ضاحكا حتى ظهر حلقه الوردي:

ـــ نريد أن تعلم كل الامارة بعودتك الى المجلس، فأنت كبير حاكينا، لكي تفرح وتمرح بسحر حكاياتك الطريفة وتتسلى كما نتسلى نحن الآن بعد يوم ملىء بالتعب والكد، تابع...

ـــ ما سأحكيه لكم يا مولاي...

قـــال:

ـــ نعلم أنه خرافة فاحك...

ترددت قبل التظاهر بالموافقة:

ـــ هي كذلك، يا مولاي، ولكن ما سأحكيه قد يكون وقع، وان كنت لا أعلم متى ولا أين، والا فانه بكل تأكيد سيقع، وان كنت لا أعلم متى ولا أين !

قاطعني الكبير:

ـــ احك بلا مقدمات...

قالت مغنية لصاحبتها:

ـــ لو يتركونه يتكلم !.

فقالت صاحبتها:

ـــ يستعجلونه لحكي وهو يحكي منذ دخل الى المجلس !

وهمس الكبير في أذني:

ـــ أنك تخاطب أميرا ومجلس أمير وليس أطفالا !

تدخل الامير:

ـــ دعه يقدم بما يشاء، فذلك يزيدنا شوقا الى الحكاية !

قلت مستنجدا بعد أن شعرت بأن زمام الكلام قد يفلت من يدي:

ـــ حفظ الله مولانا الأمير وفتح له أوسع أبواب الجنان. نكل حكاية

باب، يا مولاي، والمقدمات درجات العتبة !

حرك الأميرال رأسه مبتسما علامة على أنه يفهم، الا أن الكبير همس من جديد في أذني غاضبا:

ـــ احذر نفاد صبره، ثم لا تنس أن كل الامارة تسمع!

قالت المغنية الاولى لصاحبتها:

ـــ أراهن على أنه سيوقف الحكاية ويبدأ في جمع بعض النقود منا... تماما كما يحدث في «الحلقة» !

قالت صاحبتها:

ـــ لو كنت مكانه لفعلت هذا، على الأقل لأغيض من لا يعرف متى تبدأ الحكاية أو من يريد أن يلتهمها كما يلتهم سندويتشا !

آنئذ أدركت أنه من الأحسن أن أتخلى عن بعض المقدمات الباقية، بالرغم من كونها هامة، وان أدخل في ما يسمونه «صلب الحكاية»، غير أن الأميرال سألني:

ـــ ما اسم حكايتك ؟

أصبت بخيبة أمل وقلت لنفسي:

ـــ كيف يمكن أن يكون للحكاية عنوان قبل أن تحكى وما جدوى أن يكون لها عنوان ؟

أنا لا أعرف بعد ما سأحكي....

ولكني خفت من غضب الأمير، من جهة، وتصورت أن العنوان قد يساعدني على الاقل لأبدأ ما لا أعرف بعد، من جهة أخرى:

ـــ الولد الضال والرجل الطيب !

وقرأت علامات الاستحسان على جميع الوجوه فاستعنت على أمري بالسؤال:

ـــ ماذا يمكن أن يحدث بين ولد ضال ورجل طيب ؟

آنئذ تسلل الى المجلس طيف محمد النفال.

— ي —

لم أصدق، كما لا يمكن لأي أحد ما زال يتوفر على حد أدنى من العقل أن يصدق، ما رواه المهدي السلوقي، بالرغم من أنه أقسم بالله وبالنبي وبكل أولياء الله الصالحين على صحة ما رواه، وبالرغم من أنه ادعى أنه شاهد بأم عينيه ما حدث للطاهر المعزة وزوجته، وبأن ما حدث لهما كاد يحدث له بدوره ويودي بحياته هو نفسه مع أنه سباح من أمهر السباحين...

الا أن في ما حدث جانبا من المأساة أو الملهاة، لست أدري، وفي الحاح المهدي على أن يحكي ما حدث شيء من الصدق أو الغرابة أو الكذب، لا أعلم، جعلني أستمع اليه باهتمام وأولي الكثير من العناية لما يروي؛ قال المهدي:

ـ اللعنة ثلاث مرات، اللعنة عشر مرات... مئة... بل ألف...

قلت غضبـا:

ـ مليون، مليار مرة، إذا شئت، ولكن احك، قل لماذا كل هذه اللعنات، ولا تتكلم مثل بعض أدعياء علوم الدين والغيرة عليه !

قال شامتـا:

ـ لاحظ أنك تفعل مثلي، وعلى كل حال، تصمت إذا شئت أن أكون أمينا في ما سأروي، لا تتصرف مثل بعض أدعياء الفكر العلمي الذين يحولون الشك الى لا أدرية، شك إذا شئت، شك كما تشاء، ولكن سمع الحكاية أولا، لا تعتبر نفاذ الصبر رأيا، فالرأي لا يبني على انفعال... هكذا... شكرا... الآن أستطيع أن استرسل في الحكي !... أولا، لعنة...

ـ ألمهدي انك توزع اللعنات كما لو كنت في اذاعة أو مسجد أو مقر حزب !

ـــ اخرس، أيها الملحد، أولا، لعنة الله على الفقر الذي يجعل المرء يكذب أو يصدق الكذب ليخدع معدته... ثانيا، لعنة الله على الجفاف الذي يخلق الشعور بالفقر أو يضاعفه... ثالثا، لعنة الله على البطالة وقلة الشغل التي تدفع المرء الى اختراع شطارة وهمية وتغذيتها بالسخرية من نفسه أو من الآخرين متخيلا أنه بذلك يحقق أروع البطولات وأخلدها... رابعا، لعنة الله على حميد ولد العوجة الذي انتهى من كثرة كذبه، الى تصديق الكذب على نفسه وعلى غيره، ذلك الولد المعتوه الذي ضل سواء السبيل فأصبح يعتبر الكذب واقعيا حقيقيا ! لا واقع فوقه !...

ضاق صدري:

ـــ يلعن... من يلعن مسلما ! يا عزيزي، انك بهذا الشكل توجه فهمي للحكاية في بعد واحد بينما الحكاية دائما أغنى وأعمق !

انتفض:

ـــ هذه آخر لعنة... خامسا، اللعنة، مرة أخرى والى آخر الدنيا، على ولد العوجة الذي قتلت كذبته اللعينة الطاهر المعزة وزوجته فطومة!

قلت:

ـــ يا حبيبي، ألمهدي، كيف تريدني أن أصمت وأنت تضيع وقتي في بحر من اللعنات التي لا أعرف سببها !

قال مازحا:

ـــ يا أخي في الهم اصبر، فالصبر مفتاح المعرفة... آه، ما أضيق صدوركم أيها المثقفون !... على كل حال، لقد كانت، والله شاهد، آخر لعنة، لو أنك صبرت قليلا... كنت أفرغت قلبي !

قلت:

ـــ احك اذن، آسف !... بل لا تحك، فقد سئمت منك ومن لعناتك، من تماطلك وحشوك لتشعر ذاتك بالأهمية، انك تلعب نفس لعبة من تلعنهم، كما هو الشأن بالنسبة للكثيرين من أمثالك، وكأنك تحاول افراغي

تملأني بما تريد... تسيء الى جوهر الحكاية... عليك اللعنة اذن !

ابتســـم:

ـــ آمين، آمين... لعنة اضافية قد تحول الكم الى كيف !

فابتسمت بالرغم مني وتابع:

ـــ اللعنة... يقطع لساني المقطوع !... سأحكي حالا: استيقظ حميد صباح ذلك اليوم متأخرا كعادته من غير أن يشعر في أي صباح من تلك الاصباح القصيرة بأنه نال حظه كاملا من النوم. خرج يبحث عن فطوره وعن جماعته التي لا تلتقي الا على ضلال.الا أنه لم يجد لأصحابه أثرا لا قريبا ولا بعيدا من المدينة. ولما أعياه البحث تملكه شعور بأنهم خانوه وبأنهم حراميون كآبائهم وأمهاتهم إذ حدس أنهم قد يكونون في طريقهم الى غنيمة عظيمة،ان لم يكونوا بصدد اقتسامها فيما بينهم. آنئذ فكر في أن يقضي بقية اليوم أمام دكان صالح الرعدة في مشاكسة هذا الأخير وزبنائه من سكان ومصطافين وصيادين. وهو في الطريق الى الدكان أحس برائحة العرق النتن تنبعث من صدره كما تنبعث رائحة المدن الجميلة من المزابل العمومية أو من دور الصفيح. انه لا يعلم لماذا تصور أن صدره مدينة صفيح، ثم تصوره مزبلة عمومية، ربما لأنه كان يعرف هذين المكانين، بعد البحر، أكثر من أي مكان آخر. يعلم مع ذلك أنه في هذه اللحظة بالذات شعر بالجوع وفكر في سمك البحر. صار في اتجاه البحر يغمره شعور بالقرف، دائما يغمره هذا الشعور إذا أخطأ الطريق الى جماعته أو أخطأت الجماعة الطريق اليه، ربما لأنه يكون عليه آنئذ أن يتولى أمر نفسه بنفسه يوما كاملا... خلع السروال والمعطف الذين لم يكن يرتدي غيرهما وارتمى في قلب الماء البارد. ترك نفسه تنزل الى أبعد نقطة في قعر البحر، ثم حرك أعضاءه، وهو لا يزال يشعر بالقرف، فأحس، بعد حين، بخلاياه تنشرح، ثم قرر أن يسبح الى أبعد نقطة في عمق البحر تستطيع أن توصله اليها ذراعاه... هناك ارتمى على ظهره فوق الماء الذي أصبح ساخنا وأخذ يتأمل السماء وهو يتنفس بعمق وهدوء. ظل هكذا حتى عاد اليه شعوره بالقرف من جديد، فترك نفسه تنزل الى أعمق

نقطة في قعر البحر، ثم حرك أعضاءه التي أصبحت ثقيلة وهو لا يزال يشعر ببعض القرف... ظل يحرك أعضاءه بصعوبة الى أن أطل رأسه فوق الماء، توقف قليلا ليسترد أنفاسه، بعد أقل من ثانية سمع أصواتاً بشرية غريبة، التفت ناحية مصدر الأصوات الذي كان يبدو بعيدا بعض الشيء فلمح سفينة ضخمة راسية وسط الأمواج... كاد يتخيلها شمسا من كثرة انعكاس الأشعة عليها أو صدور ما يشبه أشعة الشمس عنها، وكاد يغرقه الخوف عندما تنبه الى أن تلك الاشعة الكثيرة لا يمكن أن تصدر كلها عن السفينة، الا أنه ما لبث أن ربط هذه الصورة بصورة أخرى في ذاكرته: صورة السفينة الاسبانية التي كانت ترسل أضواء باهرة، ذات ليلة، لتجلب السمك والحيتان الى شبكة صياديها، فظهر البحر تلك الليلة وكأنه سماء مشتعلة بنجوم عظيمة... كانت السفينة وكأنها الشمس حطت في عمق البحر... لم ير حميد من السفينة الاسبانية غير الاضواء، لكن الرعدة، الذي سبق له أن اشتغل في السفن الاسبانية، قبل أن يجمع ثروته الصغيرة ليعود الى عين الفرس ويفتح دكانا، قال للذين بهرتهم تلك الأضواء، ومنهم حميد: «تلك سفينة صيد اسبانية اسمها سانتا ماريا ومالكها اسمه سنيور خمنيث برادو، انه لا يصطاد الا الحيتان العملاقة». وبهرتهم الأسماء وطريقة الرعدة في نطقها بنفس الدرجة، أو أكثر، التي بهرتهم بها الاضواء... كان عمر حميد، اذاك، سبع سنوات. أما اليوم فانه قد تجاوز الواحدة والعشرين. الا أن صورة سنتا ماريا لا زالت حية في ذاكرته، في عينيه وأذنيه، وكأنها تعود الى أقل من ثانية... كم حلم، منذ أن تابع الأضواء تختفي مع صيادي برادو، بأن يصير عاملا في سفينة مثل الرعدة وإذا ابتسم الحظ أن يصير مالكا لها فيسميها سانتا دمية ويسمي نفسه سنيور برادو حميد... وكم أقسم بألا يعود الى عين الفرس، على عكس الرعدة الذي يزعم بأن الحنين هو الذي أعاده الى البلد، لأنه يعرف، عن طريق أبيه، أن الرعدة لم يعد الى عين الفرس الا لأنه طرد من العمل بسبب فضيحة أخلاقية لا يعرف أحد طبيعتها... أما هو فانه سيعرف، ككل الاغنياء الكبار، كيف يحافظ على أخلاقه الرفيعة !... وحين رأى حميد سانتا ماريا كان الوقت ليلا، قبل صلاة العشاء بقليل، أما السفينة التي يراها الآن فانه

يراها نهارا، قبيل صلاة الظهر. لذلك لم يقدر على الفصل في ما إذا كانت الاشعة صادرة عن السفينة أم عن الشمس ومنعكسة على السفينة. كما لم يستطع أن يميزان كانت الأصوات منبعثة من السفينة أو من قاع البحر أو من الفضاء، وان استطاع أن يجزم بأن اللغة التي كانت تصمه قد تكون الانجليزية أو الألمانية أو الروسية لأنها ليست، على كل حال، اسبانية أو فرنسية. لقد كان، مع ذلك، على يقين من شيء واحد: تشابه الصورتين. صورة الليل وصورة النهار، بالرغم من أنه لم يكن بامكانه أن يتأكد من ذلك عمليا. لهذا السبب قرر أن يسبح في اتجاه مصدر الأصوات والاضواء... لكنه لم يفهم لماذا كانت تبقى السفينة، ومهما قطع من المسافات، على نفس البعد منه: هل تكون الاصوات والأضواء مجرد سراب ؟ هل تكون منبعثة من ذاته، من عينيه وأذنيه مثلا ؟ هل تكون صادرة عن ذاكرته ؟ فضل أن يصدق احساسه الذي يعلم أنه لم يخنه الا نادرا... لكن عضلاته بدأت تكل. ودفعه الخوف الى أن يدرك أن وقت العصر يقترب وأن البحر في هذه اللحظة بالذات يتغير لأنه يبدأ يستعد للدخول في دورته الليلية، وتذكر أنه ينهى نفسه. كما ينهى أصحابه عن الاستمرار في السباحة الى ما بعد العصر... تفقد الشاطىء فلم تبصره عيناه. لا شيء غير الضباب من جهة والأصوات والأضواء من جهة أخرى، فاشتد خوفه وقرر أن يعتمد على حدسه ليعود من حيث أتى حتى يخبر أصحابه بما رأى وسمع ويقنعهم بضرورة مساعدته على الوصول الى السفينة لعله يستطيع أن يحقق حلمه في الرحيل... وصل الى الشاطىء قبل غروب الشمس بقليل ولم يستطع أن يفهم، بعد أن قطع تلك المسافة، كيف ظل مصدر الاصوات والاشعة على نفس البعد من عينيه وأذنيه. مديده الى الصخرة التي اعتاد أن يستعين بها، هو وأصحابه، على الخروج من الماء أو القفز العالي. أخرج جسمه المنهك من الماء. أخذ يبحث عن سرواله ومعطفه، فأبصر الطاهر المعزة جالسا قربهما وقد غاب بصره وراء أبعد نقطة من الخط الذي تلتقي عنده السماء بالماء. أحس لأول مرة في حياته بما يشبه الحياء أو الحرج في حضرة الطاهر، حاول أن يستغل شرود هذا الاخير ليقترب من ملابسه. الا أنه فكر على الفور: «هل يكون الطاهر

قد رأى وسمع ما رأيت وسمعت ؟». قال انه سيسأله، لكنه تذكر أنه عريان، نظر الى الطاهر من جديد كانت عينا الرجل مغلقتين. سحب ملابسه بسرعة، وهو يلبس السروال بعد أن ستر عورته بالمعطف سمع الطاهر وكأنه يتوعده:

ــ تستحم عريان يا ابن البغي !؟

سقط السروال من يديه... لم يصدق أن كلاما مثل ما سمع يمكن أن يصدر عن رجل طيب ومسالم، بل مسكين، كالطاهر الذي لقب بالمعزة لشدة مسالمته، قال ان الكلام قد يكون صدر من فمه هو وليس من فم الطاهر المسكين، فعاد يلبس سرواله ويحزمه حول حوضه...

ــ أتستحم عريان يا ابن البغي !؟

التفت جهة الطاهر من جديد. كان الطاهر لا يزال ينظر الى تلك النقطة البعيدة. استغرب من قدرة الطاهر على النظر بعينين مقفلتين، استنجد بكل قوته لينصرف في سلام، لكن الصنوت عاد يسأله:

ــ أكنت تصطاد سمكا !؟

توقف حميد عن المشي بعد الخطوة الرابعة:

ــ كلا، كنت أسبح !

ــ كنت تسبح !؟

خيل لحميد، فجأة، أن الطاهر يعرف سره، أنه رأى وسمع ما في عمق البحر، وأن هذا ما يجعله غريبا ومستفزا بهذا الشكل، قرر أن يسأله الا أن الطاهر سبقه الى السؤال:

ــ ولماذا أنت خائف !؟

فوجىء حميد:

ــ خائف !؟ ...أنا !؟ ...ولم أخاف !؟ ...ممن !؟ ...منك ! .... أنت بمثابة أبي ؟ تصور حميد أن الطاهر يضحك من غير أن يحول عينيه المغلقتين عن تلك النقطة النائية جدا. الا أنه ظل حائرا في السبب: أيضحك

الطاهر لأن حميدا، ككل أصحابه، يصبح جبانا ووديعا كالخمر في غيب الجماعة بينما هو وقح وشرس عندما يكون معهم، أم يضحك لأنه يعرف أن حميدا يستغفله إذ يحاول أن يخفي عنه ما رأى وسمع؟ رجح الولد الشق الثاني حين خلص الرجل عينيه، من غير أن يفتحهما، من تلك النقطة البعيدة واستدار نحوه:

ـــ لقد رأيتك تنزل الى البحر قبل صلاة الظهر بكثير ثم تعود منه قبيل الغروب وحدك... أين أصحابك!؟

عندئذ عادت الحيرة الى ذهن حميد واعتقد أن الطاهر ربما يكون يهيء لاهانته أو الانتقام منه بسبب ما لحق الرجل وزوجته من إهانات عن طريق بعض حماقات الجماعة، فحاول أن يستحضر بعض صور جرأته وبأسه حين يكون مع أصحابه لعلها تمنحه القليل من القوة لمواجهة هذا الموقف الحرج، اقترب من الطاهر، في هدوء مضطرب، وقال بصوت لم ينجح في أن يجعله حازما:

ـــ انك لم تصدقني حين قلت لك انك في منزلة أبي، مع ذلك ...فتح الطاهر عينيه. خاف حميد إذ رأى فيهما صورة الأضواء التي رآها في البحر:

ـــ اني جائع يا ابن الساقطة، وانت قد نزلت الى البحر باكرا وعدت منه متأخرا، لا يعقل أن تعود بدون سمك... أين السمك!؟

أدرك حميد بحاسته القتالية أن الموقف، على عكس ما كان يظن، قد بدأ يقل تعقيدا لأنه أخذ يتخذ مجرى واضحا:

ـــ أعمي الطاهر، إنك، والله العظيم، في منزلة أبي... لو كان معي سمك... أين كنت سأخفيه ولماذا أخفيه !؟ أنظر...

وخلع معطفه وطلب من الطاهر أن يفتشه، لكن الطاهر لم يفعل:

ـــ قلت لك أين السمك!؟

كان الرجل ينظر الى وجه الولد بعد وانية لم ير حميد مثلها على وجه رجل من قبل:

ــ سأقول لك، لكن شريطة أن تعدني بعدم افشاء السر...

خفت عدوانية الطاهر وأخذت ملامح وجهه تستعجل حميدا:

ــ قل أولا، سنرى فيما بعد إن كان بامكاني أن أعدك...

حينئذ كان حميد قد بدأ من جديد يسمع ويرى الأضواء والأصوات التي ظلت دائما على نفس المسافة من عينيه وأذنيه:

ــ تكلم، أين السمك، أين تخبئون السمك يا...

خطرت للولد الضال فكرة:

ــ أعمي، أخشى ألا تصدقني ان قلت لك الحقيقة!

قال الطاهر وقد عادت اليه عدوانيته:

ــ قل وسنرى!

فقال حميد الخبيث:

ــ أنا لم أعد آكل السمك، أكره السمك، رائحته بالخصوص، وأين السمك هذه الأيام، هو أيضا زهد في الاقتراب من الشاطىء بفعل الجفاف؟ أنا كل يوم آكل كمية هائلة من البسطيلة!

تصور حميد لعاب الطاهر يسيل ليبلل شفتيه، ثم ذقنه، لكن الطاهر قال:

ــ تسخر مني يا ابن الجيفة! تأكل البسطيلة!؟

وحاول حميد أن يتابع في هدوء:

ــ نعم يا عم، في تلك النقطة النائية التي عدت منها منذ قليل توجد أطنان من البسطيلة اللذيذة التي تكفي لأكل عين الفرس عاما على الاقل... اني أذهب الى هناك كل يوم في نفس الوقت فآكل حتى الشبع ثم أعود. عدني بعدم افشاء السر أدلك على مكانها!

لم يصدق حميد ما نطلق به، لكن الطاهر بدأ يصدق:

ـــ تضحك علي يا لقيط... مشوي هناك... يا ابن الـ...!؟

انتبه الولد الخبيث الا أنه لم ينطق كلمة «المشوي»، الا أنه فكر في استغلالها فيما بعد:

ـــ صدقني ياعم، أنا لم أقل ذلك لأحد غيرك... وعلى كل حال، فأنت حرفي أن تصدق أولا تصدق، لا أحد وضع سيفه على عنقك، أما أنا فاني رهن اشارتك، لأنك رجل طيب ومسكين، لأدلك على مكانها، أنت وزوجتك الكريمة، ولكن أنت وهي فقط، هل تعدني؟

أصبح الطاهر ككل جائع يسيل لعابه وتستعطف كل ذرات جسمه قوما غلاظا، يتوسطهم حميد، يجلسون حول مائدة فاخرة في فيلا فخمة، واستغل الولد الضال حالة ضعف الرجل:

ـــ في البحر بسطيلة أعمي الطاهر، في البحر بسطيلة، أطنان من البسطيلة، صدقني، فأنت في منزلة والدي، ولولا أن الجفاف قد قهرك ما كنت قلت لك!...

ـــ بسطيلة!؟ تساءل الرجل وهو يفتح عينيه ويُغلقهما.

أضاف حميد وهو يهز رأسه من حين لآخر ليتأكد من وقع كلامه على الطاهر:

ـــ أطنان!

وعاد الرجل يتساءل:

ـــ بسطيلة في البحر!؟... كيف وصلت اليه!؟ من المجنون... وكيف لم تتحلل!

ـــ صدق أو لا تصدق... ها أنا أفتح فمي... هاه... شم رائحتها!... أطنان من البسطيلة في البحر، بسطيلة ذهبية اللون كأنها خارجة للتو من الفران!.. انها لا تبرد ولا تتحلل لأنهم يطلونها بزيت يستخرج من

قلب الهدهد!

ـــ زيت من قلب الهدهد!؟ عفاريت! هذا العجب... بسطيلة في البحر! من رماها، من الاحمق الذي رماها هناك بالأطنان؟ اننا نسمع عن أناس يرمون الدجاج المشوي واللحم والفواكه، وحتى الاطفال، في صناديق القمامة، لكن لم نر هذا قط بأعيننا في صناديق القمامة، كيف نصدق بوجود البسطيلة في البحر!؟ هذا شيء عجيب... عجيب جدا!

كان ذهن حميد الخبيث قد توقد نشاطا:

ـــ تريد الصراحة أعمي الطاهر؟ اني لم أعد أفهم كيف تفكر وأنت الرجل الذكي الذي لا تفوته صغيرة ولا كبيرة مما يحدث في عين الفرس، حتى الهمس تسمعه وتفهمه، فكيف تكون، في نفس الوقت، بمثل هذا الغباء!؟

وقف الطاهر وأخذ ينظر لحظة الى تلك النقطة النائية ثم جلس من جديد:

ـــ الغباء، كلنا أغبياء، انه المشوي، يا ولدي يا حميد، فأنت تتحدث وكأنك لا تعرف ما المشوي!

كان حميد قد نسي المشوي، الا أن الرجل الذي صمت قليلا أضاف:

ـــ الغباء!... صحيح أنني غبي والا كنت فهمت أن عيني مشدودتان منذ الظهر الى رائحة المشوي في تلك النقطة التي تلتقي فيها السماء بالارض! انك على حق... أنا غبي يا بني... غبي منذ ولدت... ولكنك لم تقل لي شيئا بعد عن الذي رمى البسطيلة في البحر وبهذه الكمية الكبيرة...!

قال حميد:

ـــ المشوي أو البسطيلة؟

قال الطاهر:

ـــ المشوي... البسطيلة... شيء واحد! قل لي يا ولدي من رمى المشوي في البحر بهذه الكميات الهائلة؟

لم يعد حميد يفاجأ بأسئلة الرجل:

ـــ انهم الصيادون، صيادون أمريكيون، وما أدراك، أعمي الطاهر، ما الصيادون الامريكيون، انهم أغنى صيادي العالم وأمهرهم، فهم يصطادون السمك والحوت باللحم المشوي، يضعون الخروف كاملا في السنارة بعد أن يشووه في أفران خاصة جهزت بها سفينتهم الضخمة التي تشبه المدينة العظيمة، ثم يلقون بالسنارة الى السمك والحوت، أما البسطيلة فانهم يلقون بها أطنانا في الماء لكي يجروا السمك الضخم والحوت العملاق، عن طريق رائحتها الى العض على السنارة، فالسمك والحوت، كما تعلم، لا يأكل البسطيلة، انهم يقولون انه يحب رائحتها ويفضلها على كل الروائح الأخرى... شعب كبير لا يحب الا الغنائم الكبرى!

ـــ انهم شطار وأولاد ناس هؤلاء الامريكان، كيف عرفت يا بني أنهم أمريكيون!؟

هذا هو السؤال الذي لم يكن ينتظره الولد الرهيب:

ـــ تحدثت معهم، فأنت تعرف أننا بفضل السواح المتوافدين على عين الفرس نعرف أشهر لغات العالم أحسن من أبناء المدارس، واللغة الامريكية أشهر لغات العالم وأجملها وأسهلها على الاطلاق!

ازداد اعجاب الطاهر بحميد:

ـــ عجيب، انما قوم هؤلاء المريكان!

أضاف حميد:

ـــ ليسوا بُخلاء مثل الروس، ولا أنانيين مثل الفرنسيين، ولا فقراء مثل الاسبان والطليان، ولا معقدين مثل الالمان، ويقال أن أرضهم لا تعرف لا البرد ولا الحرارة المرتفعة، جنة لا يمسها الجفاف... انهم قوم جمعوا كل حسنات الدنيا، وأرفع حسناتهم أنهم يعطون ولا يأخذون، ألا ترى معي أنهم

يعطون للسمك والحوت أكثر بكثير مما يأخذون منه: مشوي وبسطيلة؟

غير أن الطاهر لم يرد عليه لأنه كان قد أخذ يبتعد وهو في الطريق الى بيته، فلم يسمع سؤاله. وقف حميد ونادى بأعلى صوته:

ـــ السر أعمي الطاهر، لا تطلع عليه غير مفطومة!

أشار الطاهر بيده اليسرى فظن حميد أنه يقول له:

ـــ السر في بئر لا يطلع منه من يفشي السر!

لما اختفى الرجل عن نظر الولد دخل الخبيث في نوبة ضحك حتى دمعت عيناه. ثم انصرف ليبحث عن أصحابه ويخبرهم بما رأى وسمع وفي نيته أن يحكي لهم قصة الاضواء والاصوات بكاملها ليستعين بهم على معرفة حقيقة أمرها، وذلك قبل أن يحكي لهم ما حدث له مع الطاهر ليَضْحَكوا ويتندروا بقصة هذا الولد مع الرجل الطيب... بعد العشاء مباشرة خرج يبحث عن جماعته فوجدهم يشربون «عصير الجوارب» غير بعيد من دكان الرعدة... غير أنه لما شرع يحكي تلك المغامرة روى لهم ما وقع له مع الطاهر باعتباره عملا خيريا قام به احسانا الى رجل غلبه الجفاف فأصبح غير قادر على إعالة نفسه وزوجته مضيفا، طبعا أنه بمثابة أب له! وكان قبل هذا قد أخبر أصحابه بأن المشوي والبسطيلة واقع شاهده بأم عينيه وأنه مستعد ليدل كل واحد من الجماعة على مكانه! واستخلص من كل ذلك أن الأمر يهم كل أفراد الجماعة الذين عليهم واجب أن يجدوا طريقة للاستحواذ على تلك الاطنان من البسطيلة والمشوي قصد المتاجرة بها وأن الذكاء يتطلب أن يقوموا بذلك في أسرع وقت، أي قبل أن يعرف الآخرون، وبخاصة التجار، موقع الكنز! الا أنه، وهو يرتب روايته، نسي أن يذكر لهم شيئا عن قصته مع الاصوات والاضواء بالرغم من أنها ظلت تتراقص في أذنيه وعينيه وبالرغم من أنه تخيل تلك السفينة التي تنبعث منها أو تنعكس عليها تلك الأضواء والاصوات في صورة امرأة رائعة الجمال لا يزيد عمرها عن الثامنة عشرة، وكان اسمها أجمل: سانتا ماريا!

صباح اليوم التالي بحث حميد عن الطاهر وعن زوجته. لم يكن لديه ما يقوله لهما أو يفعله من أجلهما أو معهما. كان يريد أن يراهما فقط ولو من بعيد. غير أنه لم يجدهما في أي مكان. ظل يبحث ثلاثة أيام متتالية قبل أن أن يقتنع بأنهما لم يرجعا من تلك النقطة النائية التي تلتقي فيها السماء بالارض والماء! خلال ذلك كان أصحابه يصنعون مركبا وكان في نيتهم أن يجهزوه بمحرك لأن حميدا قال لهم انه سيدلهم على محل يسرقون منه محركا ضخما!

ــ تعني أن الطاهر المعزة ذهب الى عمق البحر مع زوجته بحثا عن البسطيلة والمشوي؟ سألت المهدي.

ابتسم هذا الاخير ابتسامة ساخرة، فلم أشعر بأي غضب تجاهه لأني اعتبرت الابتسامة المتهكمة مناسبة لكي يأخذ نفسه وآخذ نفسي بدوري:

ــ وهل لديك فرضية أحسن لتفسير اختفاء الطاهر وفطومة؟

فكرت قليلا وبارتباك:

ــ لا أعرف، حقيقة، لا أعرف، ولكن لا أحد شاهد ذلك بعينيه!

ارتسمت ابتسامته المتهكمة على الوجه بأكمله:

ــ هذه الأحداث، وأية أحداث مثلها لا يمكن أن ترى بالعين أو تسمع بالاذن كما تشاهد أو ترى أحداث أخرى في الواقع أو في التلفزيون، يحتاج المرء أحيانا الى أذن داخلية وعين باطنية!

لم أستطع أن أعلق، أضاف:

ــ وعلى كل حال، الآن بامكانك أن تشك في ما حدث، أن تعيد ترتيبه إذا شئت أو تضيف اليه بعض التفاصيل من عندك، أما الوقائع فهكذا حدثت، بل بدأت!

ظننت أنه ما زال يسخر مني:

ــ كيف، أضيف اليه تفاصيل من عندي وأعيد ترتيبه؟ والموضوعية!؟

ابتسم هذه المرة بلطف وكأنه يحاول أن يخفي تهكمه:

ـــ الموضوعية هي أنا وأنت، فأنت مثلي جزء مما حدث، ومن الضروري إن لم تكن جزءا حتى الآن، أن تضع نفسك في الاحداث، إذا أردت حقا أن تفهم القليل مما يمكن أن يفهم... هذا ما أعنيه بإضافة تفاصيل من عندك وباعادة ترتيب ما حدث، فالاحداث تعطى لنا دائما ناقصة وبلا معنى، فبالأحرى أحداث كهذه! سكتت لأني أردت أن أفكر قليلا في هذه الاحداث التي أقل ما يمكن أن يقال عنها إن الكذب أو الوهم قد اختلط فيها بالصدق وأنها من لا شيء أصبحت شيئا وكأن الكذب فيها هو الصدق والصدق هو الكذب واللاشيء هو الشيء:

ـــ تدعي أنك شاهدت شهود عيان ما حدث للطاهر وزوجته، أين كنت؟

أطفأ ما تبقى من سجارته وكأنه يطفئها في عيني:

ـــ سؤالك بوليسي الصيغة، ولكن لا بأس... الحقيقة أني لم أشاهد ذلك بما تسميه أنت «شهود عيان»، وانما رواه لي صديقي الصياد مبارك بوركبة، فشاهدته بعد ذلك... في ما يشبه الحلم أو الرؤيا أو التذكر... بوركبة نفسه لم يشاهد بأم عينه ما حدث للطاهر وزوجته... رواه له صديق من أصدقائه الصيادين فرآه هو أيضا بما يشبه الحلم أو الرؤيا أو التذكر... من المؤكد أن صديق بوركبة لم يعاين الحدث، وانما روي له بنفس الطريقة فشاهده كما شاهدته وشاهده بوركبة... من المؤكد كذلك أن لا أحد رأى بغير هذه الطريقة... هذا كل ما أستطيع أن أؤكده لك والبقية يجب أن تأتي من عندك!

بدالي الأمر، كما قد يبدو لكل من يتوفر على حد أدنى من سلامة العقل، أقرب الى الخرافة منه الى الواقع المطابق للواقع. كلما أعملت النظر فيه بدا غير قابل لذرة واحدة من الواقعية... كدت أحسم المسألة بالقول ان كل الأحداث من خلق ذهن المهدي. ان السند الوحيد هو المهدي. ولكن كيف السبيل الى التأكد من صحة روايته؟ انه يعتقد أن الاحداث واقعية ومعقولة

بما فيه الكفاية والا لما رواها ودافع عنها على الرغم من قوله انها غير كاملة وتحتاج الى تفاصيل واعادة ترتيب لكي تكتسب الموضوعية والمعنى. بعبارة أخرى: ان هناك شيئا صغيرا أو كبيرا، هاما أو تافها، لا أعلم... لكنه غائب في رواية المهدي: من أين تستمد الوقائع إمكان حدوثها بهذا الشكل؟ المهدي يذهب الى أنه يجب أن أبحث عنه في نفسي، الا أنه لحد الساعة لا يوجد الا في نفس المهدي، في ذات المهدي وحدها وان كان يشترك فيه مع ذوات أخرى، بل وأن يوجد في واقع ما، ولكن أي واقع وأين تلك الذوات الأخرى؟.

ـــ وأين يمكن أن نجد صديقك الصياد ليأخذنا الى صديقه فنسمع منه ما رويت؟ سألت وكأني نسيت شيئا من الحديث السابق.

ـــ في قاع البحر، وكذلك صديقه، لقد حدث لهما ما حدث للطاهر وزوجته! ازدادت حيرتي: هل صار المهدي سفاحا!؟

ـــ وكيف عرفت هذا؟

ـــ بما يشبه الحلم أو الرؤيا أو التذكر! كل ما حدث في عين الفرس يظهر أني صرت أعلمه بهذه الطريقة الغامضة، يكفي أن يروي لي مرة واحدة، وأحيانا من غير أن يروى، كي أشاهده وهو يحدث... كان هذا في البداية، أما الآن فاني لم أعد في حاجة الى أن أسمعه من أحد... صرت أراه بما يشبه العين الباطنية وأسمعه بما يشبه الاذن الخفية!

قلت لنفسي: لاشك أن الرجل قد جن!

الا أنه نشر ابتسامته المتهكمة على وجهه:

ـــ غير أني أتحقق من الواقع فيما بعد !

ـــ كيف !؟

ـــ أبحث عنهم في كل مكان فلا أجد أحدا... ولا واحد من هؤلاء عاد!

ـــ قد يكونون في سفر أو مهمات خاصة أو مرضى!

لم تتغير ابتسامته:

ــ سافروا الى عمق البحر، الى سانتا ماريا... البغي اللعوب!

أحسست بأن المهدي يلعب لعبة غريبة وخطيرة اما بوعي واما بلا وعي واما بهما معا، لاشك أنه أصبح سفاحا أو أحمق وأنه يختلق الوقائع الغريبة للتستر على نفسه، وربما يكون ذلك بمجرد شعور حاد بالوحدة! غير أني لا أملك حتى الآن ما أستطيع تعريته بواسطته:

ــ اذن لا أحد يمكن أن يشهد على ما حدث!؟

انطفأت ابتسامته:

ــ لا أحد مع الأسف غيرك!

أيتوهم أنه يستطيع أن يصل باللعبة الى هذا الحد؟

ــ ولماذا أنا بالضبط!؟

ــ لأنه لا أحد، جميع الذين حدث لهم ما وقع للطاهر وزوجته لم يرجعوا بعد، ولا أمل في رجوعهم، ولكن هناك من كاد يحدث له ما حدث لهؤلاء فنجا بأعجوبة، أنا من نجا بأعجوبة،أنا الوحيد الذي نجا،وأنت الوحيد الذي سمعني!

تصورت لحظتها أنه يتعمد إضافة عنصر غرابه آخر:

ــ أية أعجوبة!؟

قال وقد عاد اليه بعض الارتباك:

ــ لست أدري، ليتني أدري، لقد وجدتني فجأة أعود الى الشط بعد أن اقتربت من موقع المأدبة المزعومة وكأن صوتا عميقا ــ من داخلي أو خارجي، وربما من عمق البحر أو قلب السماء ــ يوجهني بالقوة نحو الشاطىء، يجرني جرا خارج الماء، وهذا عين ما حدث لكل الذين كادوا أن يهلكوا فنجوا... مرت بذهني فكرة:

ــ كانوا موظفين مثلك إذن!

تقلصت قسماته:

ـــ كيف عرفت!؟

سعيت أة يتحول الى مستوجب:

ـــ ليس مهما، كنت تبحث عن البطيلة والمشوي بدورك!؟

عادت الابتسامة المتهكمة الى وجهه:

ـــ ربما، ولكني أذكر أني كنت أبحث عن بوركبة!

عدت الى موضوع الذين نجوا:

ـــ هؤلاء الذين نجو أين يمكن أن نجدهم لنسمع منهم ما حدث؟

أجاب بما يشبه الحياد:

ـــ في قاع البحر!

ـــ هلكوا أم نجوا، ما هذا التناقض؟

ـــ نجوا في المرة الأولى، ولكنهم هلكوا في المرة الثانية أو الثالثة، كل من عاود الكرة منهم هلك، وقد عاودوها جميعا الا أنا... لم أعاود بعد!

شعرت بالغضب اذ خيل الي أنه يتصرف بطريقة تجعل منه الشاهد الوحيد، ذلك الشاهد الذي يستطيع تقييم الاحداث ليظل سيد روايته، الا أني فكرت:

ـــ إذن لم يبق غير شاهد واحد: حميد ولد العوجة نذهب اليه ونسأله لنتأكد مما حدث، لعلي بمقارنة روايته مع روايتك أقتنع أو أفهم!

ظل محافظا على حالة الحياد:

ـــ فعلت هذا قبلك، ولكن حدث له ما حدث لغيره، أي للطاهر وزوجته قبله، رآه أصحابه يذهب الى البحر ليأتيهم بعينة من البطيلة والمشوي حتى يقتنعوا ويذهبوا معه... انتظروه ثلاثة أيام كاملة و لم يرجع...

أضاء أمل لم يكن متوقعا:

ـــ اذن نسأل أصبحا !

لم يتخلص من حياده:

ــ هلكوا الواحد بعد الآخر وبنفس الطريقة!

ــ ومن قال لك إنهم هلكوا؟

ــ اذن قل انهم ذهبوا ولم يرجعوا!

حاولت أن أحافظ على الأمل:

ــ قد يكون مختفيا خوفا في انتظار أن تهدأ الامور!...

أضاف ببعض الشماتة:

ــ أو هلك خوفا أو انتهى الى تصديق ما رأى أو اعتقد أنه رآه، قد يكون وجد بالفعل ما رأى، وقد... الله أعلى وأعلم! أما الأمور فانها لا تهدأ!

تصور أنه حتى الآن ما زال الناس يذهبون الى هناك ولا يعودون!

أصبح الوضع أكثر غرابة في رأسي:

ــ كذبة تفعل كل هذا في الناس!

احتج:

ــ ومن قال لك إنها كذبة!؟ كذبة... الله أعلى وأعلم!

لم يعد أمامي سوى أن أقبل معه أن ذلك لم يكن كذبة، أنه ربما كان كذبة غير عادية، كذبة هي الواقع أو الحقيقة أو تشبه شيئا من الواقع أو الحقيقة، ولكن كذبة بالنسبة لأي معيار: الواقع الذي لا يراه أحد والا سمي كذابا!؟ لست أدري!

استأذن المهدي وانصرف. إلا أني خلال ما تبقى من الليل رأيتني أقف على شاطىء عين الفرس وأشاهد نزول ثلاثة شبان الى البحر. انتظرت عودتهم حتى مطلع الفجر فلم يرجعوا. قالت لي أمي التي استيقظت للصلاة:

ــ لكم تشخر، يجب أن تتوقف عن الخمر والدخان!

هل كنت أحلم!؟ ولكن الشمس جعلتني أفتح عيني وأنا أقف على

تلك الصخرة المتوسطة الارتفاع والتي قيل لي، ورأيت الشبان الثلاثة عليها، ان الجميع هبط منها الى البحر... كانت ثيابي مبللة! والأغرب من ذلك أني خلعت ثيابي ونزلت من ذات الصخرة الى البحر.. أخذت أسبح في ما اعتقدت أنه نفس الاتجاه الذي قصده الآخرون قبلي... بعد حوالي الساعة والنصف من العوم الذي تخللته فترات استراحة على الظهر بدأت أشعر بقوة عجيبة تقف في طريقي وتسد كل منفذ الى ما ظننته المكان الذي ذهبوا اليه... لم أستطع سوى العودة، وبسرعة غريبة، الى الصخرة التي كنت قفزت من فوقها... ارتديت ثيابي وانصرفت بعيدا عن الشاطىء. تذكرت أني موظف في السلم العاشر. الا أني لم أفهم لماذا كان البحر غير عادي بذلك الشكل أم ترى أن الخوف هو الذي سد في وجهي الطريق؟ لقد جرى كل ذلك في ما يشبه الحلم أو الرؤيا أو التذكر، تماما كما وصفه المهدي، بل اني توهمت أني رأيت المهدي هناك يتجه بدون صعوبة نحو المكان المعلوم وهو يصرخ في أذني:

ـــ ارجع قبل فوات الأوان، ان من يصل يعاود الكرة اذا رجع!

شعرت بخوف مثل الحمى من هذا الواقع ـــ الحلم أو الرؤيا أو التذكر واعتكفت في بيتي يومين متتاليين. الا أني بقيت أعيش طيلة اليومين ما عشته في اليوم السابق: الناس يتساقطون من فوق الصخرة! فقررت أن أخرج الى المقهى لعل تواجدي حيث يكثر الناس يحميني من ذلك الكابوس أو... هذا الذي لم أعد أجد له اسا!

غير أني ما كدت أشرب قهوتي وأبدأ في تصفح الجريدة حتى وقف المهدي على رأسي، طلب أن أمسك لساني وأن أتبعه في حذر، كان متنكرا في ثياب جبلية. حين وصلنا الى الحديقة العمومية المهجورة توقف تحت عمود ضوء معطل وأخرج بعضا من صفحة من جريدة:

ـــ اقرأ واحذر!

كان من الصعب قراءة الورقة لكثرة الثنايا وانعدام الضوء، سحبها من تحت عيني وأخذ يقرأ: «هذه الايام، لا حديث للمواطنين، في عين الفرس

وخارجها، سوى عن اخوانهم بعين الفرس الذين ينزلون الى البحر ولا يعودون منه».

نظر إلي لحظة قد تساوي بالنسبة له دهرا وكأنه يسألني في تحد:

ــ هل صدقت الآن!؟

ثم طوى الورقة وأعادها بعناية الى جيب جلابيته بينما بقيت جامدا لا أعرف ما أقول ثم جاءني صوته، وربما كان صدى صوته، وكأنه آت من أعماق البحر:

ــ هذا ما تعتقده الصحيفة الوحيدة التي تحدثت عما حدث!

توقف قليلا ليسترد أنفاسه ولكي يتأكد من أني أستمع:

ــ ولكن تحرياتي الخاصة قد قادتني الى ما يلي: هناك قوى تستغل جوعنا وقد نذهب جميعا ضحية هذه المؤامرة!

لم أفهم جيدا:

ــ أية قوى وأية مناورة!؟

قال مقهقها:

ــ حمار، حمار... أنت حمار!

صخرت في محاولة لا نتشال نفسي من الظلمات:

ــ كفى، كفاك هراء، الى أين ستؤدي بك هذه الهلوسة!؟

صمت الى أن هدأت:

ــ انني على الاقل أحاول أن أبحث، أما أنت...!

وسمعت، بعد ذلك، وقع قدميه وهو يمشي مضطربا فخيل الي أني أسمع رجليه تخبطان في قاع البحر. تبعته، وأنا أستمع الى وقع قدميه الذي لم أستطع تمييزه عن وقع قدمي، الى أن دخل الي بيته وأتاني صوت المفتاح يدور في الباب.

انقطعت عني أخباره ما يزيد عن العشرين يوما وهو عدد الايام التي كنت أجدني من خلالها كل صباح على تلك الصخرة بشاطىء عين الفرس حيث ظل الناس، خاصة الشباب، ينزلون الى البحر ولا يعودون منه.

وأنا عائد ذات يوم من تلك الصخرة التقيت بأخيه الأصغر فسألته عن أخباره، قال:

ـــ لم يعد يغادر البيت وقد أضرب عن الطعام والكلام... من حسن الحظ أني وجدتك. لقد أرسلني منذ يومين في طلبك. يقول لك انه مستعد للقائك بعد صلاة العشاء في نفس الحديقة وتحت نفس العمود.

هناك في الحديقة المهجورة، تحت ضوء قمر باهت، أبصرته يتجه نحوي بخطى ثابتة وعينين باسمتين، ليقف في عيني ويقول:

ـــ في البحر بسطيلة ومشوي، يا محمد، في البحر بسطيلة مفروشة بالمشوي، محشوة بفواكه البحر، في البحر أطنان من البسطيلة اللذيذة التي لا يستطيع أن يراها من ما زالت بعقله ذرة عقل!

وعاد من حيث أتي ببطء وهدوء، كان وهو يبتعد يتوقف بعد كل خطوتين ليلحس أصابعه بلذة وشهية عظيمتين، ثم يخطو خطوتين وهو يقهقه، ثم يتوقف ويبدأ يلحس أصابعه...

ـــ ولكن كيف شاهدت البسطيلة في البحر؟

حدست أنه كان سيجيب:

ـــ بتلك الطريقة الغريبة التي تعرف... ان من يذهب يعاود!

لما اختفى تماما عن بصري علقت صورة أصابعه الطويلة ذات الأظافر الحادة في عيني. ظلت الصورة على هيأتها أكثر من اسبوع الى أن قررت أن أتحرى ما حدث بنفسي ولنفسي إذ زعمت لي هذه النفس أن ما حدث لا يمكن أن يكون أكذوبة أو خدعة تنطلي على هذا العدد الهائل من الناس، ومنهم من كان آية في الذكاء مثل المهدي!.

صرت أذهب كل يوم الى تلك الصخرة لأجلس بجوارها أو فوقها اليوم كله وأحيانا الليل والنهار، أشاهد الناس ينزلون ولا يعودون أو يعود بعضهم ليذهبوا في اليوم التالي ولا يعودون! وأكثر من مرة في الليلة، منذ أن تعانق السماء البحر ولا يسمع غير صوت أعماق الماء يداعب همس الليل أو صدى أصوات السماء وحركة السمك والحوت، منذئذ، أرى المهدي طالعا من البحر كعمود نار وخلفه كل الذين هلكوا أو غابوا، ان لم يكن هلك أحد، يلحسون مثله أصابعهم الطويلة ذات الأظافر الحادة القذرة. وذات ليلة أحسست باغراء البحر فدخلت البيت وأنا أقول لنفسي:

ــ ما زال أمامك ما يكفي من الوقت فلا داعي للتسرع، قد ينكشف السر!

وجدت ورقة صغيرة بالباب:

ــ مات المهدي من الصيام ولم يبكه أحد!

ابتسمت:

ــ بل مات قبل ذلك بكثير، مات حين قر في نفسه، بتلك الطريقة الغريبة أنه يملك ما يشبه السر العظيم أو الرسالة... لا أعرف كيف أصف ذلك!...

واستدركت:

ــ بل ذهب... ذهب كالآخرين ولم يعد!

ورميت جسدي في السرير وبدأت أصغي وأنظر الى الاصوات والاضواء التي تملأ البحر:

ــ هكذا تبدأ الرحلة!

ونمت وأنا على يقين من أني سأركب البحر عما قريب!... وبعد، هذه يا مولاي هي الحكاية التي وقعت في تلك المدينة البعيدة جدا عن امارتكم، هذه هي الحكاية كما رواها لي محمد النفال صديق المهدي السلوكي، محمد الذي التقيت به في أحد قطارات العجم والذي بلغني أنه هلك كما هلك الآخرون. حفظ الله مولاي الأمير وأبعده ورعيته عن كل مكروه!

ـ ن ـ

لا أيقظ الله أحداكما أوقظت ـ ذلك الصباح ـ وجررت الى ديوان الأميرال، وأنا لم أنل بعد حظي من النوم!...

كانت الحكاية قد انتهت قبيل الفجر في ما يشبه النشوة والحسرة في نفس الوقت، أمر الاميرال إحدى مغنياته بأن تختم الحفل بأحلى ما لديها لكي لا تبقى الا النشوة زادا لمواجهة النهار.غنت المغنية فأطربت وأسالت غزير اللعاب والعرق. كذلك فعلت راقصة والعازفون. ونودي لصلاة الفجر فاغتسلنا بسرعة وتخشعنا في رهبة ثم تفرقنا في اتجاهات أسرتنا لندخل ـ كالعادة ـ ظلمات الليل في النهار... لكن ما كدت أغفو حتى اقتحموا غرفتي، طرحوا زوجتي أرضا وانتشلوني كما ينتشل جنين بينما الاطفال يتصايحون كالخرفان: خمسة رجال كالبغال، كل واحد منهم ينافس الآخر في تطبيق الأوامر بأكثر ما يمكن من الصرامة والخشونة:

ـ مطلوب الى ديوان الامير فورا!

بعد بالغ الرجاء أمهلوني الى أن أستر عورتي، كانوا يريدون اقتيادي عاريا وكأنهم يبرهنون بذلك على أنهم قاموا بواجبهم خير قيام... رأيت الأميرال غاضبا مرات عديدة، أحيانا لأتفه الأسباب، إذ يخرج عن هدوئه ويصير أقل من أقلنا حكمة. الا أني لم أره من قبل في مثل غضب ذلك الظهر:

ـ أحضروا السم والسياط!

لم يعد لدي شك في أن الأميرال ناقم علي لأمر خطير يظن أني اقترفته:

ـ السلام على مولاي ورحمة الله وبركاته!

لم يرد السلام، وهو المعروف برد السلام بأحسن منه، ولكنه نظر

الى كبير المؤنسين وعيناه بركانان هائجان:

ــ بالسياط يقول كل الحقيقة... قطرة، قطرة حتى تتساقط أشلاؤه جزءا جزءا!

أنا الذي تقاطر جسده لذة... حبة حبة... في فم الاميرال!؟ لا يفاجئك من دهرك شيء!

خرج الأميرال تتقدمه حاشيته وبقيت وجها لوجه مع كبير المؤنسين... لا شك أن الكبير من برج الأرنب الذي يميل نحو الأسد أو الثعلب عندما تنحو الأبراج منحى التمازج، والا فما معنى ذلك الشعور الغامض الذي جعله يضطرب وهو يحاول أن يستأسد!؟ أحقر ما في الدنيا أن يسقط حر في يد حقير!

يا سيدي الكبير، أنت لساننا عند الامير، وأنت أذن الأمير... بدونك لا نتكلم ولا يسمع الامير أو نسمعه، أفهمني الامر!... أعرف أنك كلفت بأن تصير قدم مولاي، ولكن أفهمني لربما جنبتك تعب الركل!...

ــ ومن قال لك، يا عجوز، ان في الركل تعبا!؟ انه رياضة... اجلدوه مئة جلدة!...

أمر الجلاد بالتوقف عند الخمسين:

ــ رأفة بسنك يا لعين، إذا تكلمت، طبعا...!

خفت من الكلام، فهم لا يريدون منه الا ما يسلي ويطرب، وأحيانا يطلبون جيده، ولكن ان قلته غضبوا: ماذا يفعل اذن من لا يطلب منه الا الكلام!؟

ــ أتريدون حكاية أخرى!؟ إني على استعداد تام ولو أن الوقت نهار...

تقمص الارنب الاسد من جديد:

ــ تابع أيها الجلاد حتى المئة!

لو أستطيع أن أعرف ما يغضبهم بهذا الشكل!

ـــ يا سيدي، أخبرني، على الاقل، بما جنيت!

بقيت أستعطفه حتى الجلدة الواحدة والسبعين:

ـــ أحقا لا تعرف ماذا جنيت يا رجيم!؟

لا يمكن أن أقول له إني لا أعرف والا اعتبر ذلك احتقارا الشخصه العليم:

ـــ أعرف، أعرف... الا أني أرجو أن يساعدني أحد بالسؤال، إني رجل هرم الذاكرة والعقل، كما تعلم، ان لم تسألوني عن التفاصيل وتساعدوني على تذكرها صعب على الاعتراف...

ـــ سنساعدك على الفور، تابع جلاد!

يئست وأمسكت عن الاستعطاف، لعلهم تعودوا عليه وصاروا يعتبرونه دليل إدانة... من يدري: لعلهم يجلدونني للتسلية!؟ ألست الحاكي المسلي من زمان... زمان...!؟ غير أنه أوقف الجلد عند الثمانين وهو يحاول أن يستخرج من الارنب الثعلب:

ـــ أتريد حقا أن نساعدك بالاسئلة!؟

لم أعد أثق في أسئلته:

ـــ سأكون شاكرا لكم جزيل الشكر!

استكمل لبس قناع الثعلب:

ـــ وبماذا تساعدنا أنت!؟

من أين لي أن اعرف؟ لو كنت أعرف:

ـــ بكل ما أستطيع، بالأجوبة الصحيحة مثلا!

حرك الثعلب أذنيه وكأنه لا يفكر الا بهما:

ـــ طيب لنجرب!

أجلسوني على أريكة ومسحوا دمي بسائل زاد جراحي ألما ثم قدموا الي عصير برتقال وعصير تفاح وعصير موز وعصيرا آخر لم أتبين طعمه لأني آنئذ شعرت بالخازوق ينتصب تحتي:

ـــ أين توجد عين الفرس؟

يا للسؤال البليد! أيمكن أن يطرح مثل هذا السؤال من كبير المؤنسين!؟

ـــ لا توجد في أي مكان، قلت لكم انه في كل الدنيا لا يوجد مكان بهذا الاسم وإذا وجد فعلا فأنا أعرف أن ذلك مجرد صدفة!

هم يظنون أننا نحكي لنتحدث عن مكان معين ونحن نذيب المكان لتكون الحكاية ممكنة:

ـــ نحن على يقين بأنها توجد في مكان ما، وفي مكان غير بعيد عنا!

بالطبع، مكان الحكاية، كزمانها، أقرب الينا من حبل الوريد، ولكن...

ـــ في رأس الفرس، الحيوان الذي اسمه الفرس!

لم أكن أمزح، فقد حاولت أن أكون في مستوى تفكيره، الا أنه غضب حتى اختلط الثعلب برفيقيه، فحاولت أن أستدرك:

ـــ في بيت الامير، هي الآلة الصغيرة التي في بيت الامير!

ضحك بخبث بليغ هذه المرة:

ـــ تعرف اذن أنها توجد في هذين المكانين: رأس الفرس وبيت الامير!

لابد من ارضائه:

ـــ أجل، ولو أني لم أنتبه الى ذلك من قبل!

تابع بعد أن اصفرت ضحكته:

ـــ هناك مكان ثالث توجد فيه، هذا بالضبط ما نريد أن نعلمه منك!

ماذا أقول له؟ لن أكذب فهو قد يجعل من الكذب حجة ضدي:

ـــ مكان آخر: ثالث!؟ والله لا أعلم!

انفجر ضاحكا حتى خيل الي أن وجه الحيوانات الثلاثة تضحك وراء بعضها البعض: الأرنب، ثم الثعلب، ثم الأسد! لكنه أوقف ضحكه فجأة:

ـــ انها اسم سري لأحدى المدن الشاطئية بالامارة!

لم أصدق، طبعا:

ـــ اسم سري لـ...!

سلط عينيه على وجهي كما لو كانتا مصباحين هائلين:

ـــ تماما، هذا ما اكتشفناه اليوم!

لم أقدر حجم الفرح الذي جعلني أقفز من مكاني وكأني لا أعاني من أي ألم:

ـــ أرأيت، يا سيدي، كيف تكون الحكاية واقعية أحيانا!؟ أنا والله ما صدقت يوما أن الحكاية خرافة أو وهم، كنت أظن أن الحكاية، كهذه التي رويتها لكم، تاريخ أعم وأشمل وربما أدق من كل تاريخ يكتبه المؤرخون اليوم!...

ما زالت وجوه الحيوانات ضاحكة وراء بعضها البعض:

ـــ نعرف ذلك... نحن أيضا!

تصورت أنه لم يفهم جيدا كعادته:

ـــ وها أنت ترى يا سيدي أن هذه الحكاية، حكاية عين الفرس، ربما بفضل الصدفة، كما أظن، وربما بفضل شيء يجري على الدوام، يوجد لها مكان لم أكن أعرف لا أنا ولا أنت ولا الأمير اسمه...

ظلت عيناه تضيئان كل ثنايا وجهي:

ـــ احذر... ستكسر الخازوق!

انتبهت الى أني كنت واقفا والاريكة معلقة بمؤخرتي فعدت الى الجلوس بعد أن أدركت أني ربما أكون في ورطة حقيقية:

ـــ ان ما حدث من معجزات الأمير!

تخلت الحيوانات عن الضحك:

ـــ الأمير يظن، بل نحن على يقين من أنك كنت تعرف من قبل بوجود هذا الاسم، الا أنك أخفيته عن الامير!

تذكرت كيف أبصر طيف محمد تلك الآلة الصغيرة التي تشبه رأس الفرس ذات العين الواحدة وكيف قال لي: «سندخل الولد الضال والرجل الطيب في عين الفرس ونجعل منهم حكاية!» ولكنه لن يفهم:

ـــ يستحيل، يستحيل أن أخفي اسما سريا لاحدى مدن مولاي عن مولاي!

قال:

ـــ هذا شيء ثابت ضدك!

عليك اللعنة يا محمد بعدد المرات التي لعن بها المهدي حميدا:

ـــ تمزح يا سيدي!؟... وماذا كان سيحدث لو وقع شيء، لا قدر الله، بسبب وجود هذا الاسم في تلك المدينة؟... الاسماء، كما تعلم يا سيدي، قوى خفية كالعفاريت ولا يمكن لمدينة أن تختار اسما، سواء في السر أو العلن، لا تكون له انعكاسات على مصيرها... مثلها في ذلك مثل الأفراد، ان الاسم يؤدي الى حدوث ما تتطلبه كيمياؤه!

عيناه تملكان طاقة لا تنفذ، بل تتجدد:

ـــ وقد وقعت حوادث من هذا النوع في عين الفرس!

ظننته يمزح، بينما كان يستدرجني بالمفاجآت، فنحن الذين نحكي قد

نقول أشياء لا نعلم بها لأننا نقولها فقط لأننا نتكلم، نحكي... وقد يجد فيها غيرنا ما لا ندري:

ـــ أية حوادث يا سيدي تعني!؟

غريب هذا الضوء الذي ينبعث من عينيه: هو شاحب في العادة كوجه سمكة مجففة!

ـــ كل الحوادث التي جاءت في حكايتك عن عين الفرس!

مرة أخرى قفزت من الفرح ناسيا آلامي والخازوق:

ـــ ها أنت ترى مرة أخرى، يا سيدي، وبما لا يدع مجالا للشك، أن الحكاية التي تبدو مجرد خرافة قد تتحقق، أنها لا تكف عن التحقق!

لكنه أشار الى مؤخرتي فعدت الى الجلوس إذ تذكرت الخازوق:

ـــ وعلى كل حال، فهذه معجزة أخرى من معجزات مولانا الامير!

الضوء يزداد تجددا وكثافة في عينيه:

ـــ الأمير يظن، بل نحن على يقين من أنك كنت تعلم بوقوع هذه الحوادث قبل وقوعها، أي قبل أن نعلم بوقوعها اليوم!

لأول مرة لم أتمالك نفسي من الغضب:

ـــ أنتم تخلطون بين الحاكي والعراف كما تخلطون بين المؤرخ والمداح...

انطفأت عيناه:

ـــ احذر يا خائن، انك تشتم الامير، انك تشتمه بعد أن خدعته وبعد أن هزأت منه في حكايتك!

عليك اللعنة يا محمد... مليون مرة!... عليك وعلى كل أصحابك... أكلما حكى أحد شيئا من هذه الحكاية سقط في شباكها الرهيب!؟...

كنت قد عدت الى الجلوس:

ــ عيب، عيب أن تخلطوا بيننا وبين مخبريكم... ثم لماذا كل هذا العدد الهائل من المخبرين ان لم تكونوا قادرين على معرفة ما يجري في امارتكم!؟

احتمى وراء عصا الامير:

ــ قلت لك احذر، انك تشتم كل الامراء!

خفت أن يقول «انك تشتم الله!...»:

ــ أنا أشتم الامراء!؟ عيب يا رجل، اني لا أقدر على شتم واحد من أعوانهم فكيف أشتم كل «الوطن الكئيب»!؟

كان الامير قد دخل:

ــ لقد اعترف، يا مولاي، بخيانته العظمى لكم وصدق حدسكم العظيم فيه، انه يهزأ بكم ويخدعكم، ولقد شتمكم في آخر التحقيق!

حاولت أن أحتج، أن أبين حقيقة الأمر، أن أقول... قال الأمير الذي بدت صفحة وجهه كالبحر الهائج حين يرى من بعيد:

ــ أمرنا، نحن الأمير وارث حظه أبا السعد بنسعيد، بما يلي:

أولا، عزل عين الفرس عن بقية مدن وأنحاء الامارة الى أن تطهر.

ثانيا، تكميم فم حاكينا الأسبق، محمد بن شهرزاد الأعور، ونفيه الى عين الفرس.

ثالثا، يقضي محمد بن شهرزاد الاعور، في عين الفرس مدت تسعين يوما مكمما معلقا السم في عنقه، ثم يحمل الينا، بعد انقضاء هذا الاجل، ليتجرع السم في حضرتنا.

رابعا، يمنع حضور الحاكين في مجلسنا ابتداء من هذا اليوم.

وخرج الامير تتبعه حاشيته بينما بقي كبير المؤنسين والجلاد. كنت مطرقا، وكذلك كان الجلاد، بينما كبير المؤنسين ينظر الي بعينين لم تعودا تبصران شيئا، فرفعت اليه نظري أسأله:

ـــ بربك قل لي: كيف خدعت وهزأت وشتمت!؟

اشتعلت عيناه من جديد:

ـــ أجل، خدعت وهزأت وشتمت أيها الصعلوك!

ما زال يبالغ اذن في ممارسة دوره:

ـــ وكيف ذلك يا سيدي!؟

حاول أن يجعل صوته أكثر خشونة:

ـــ كيف!؟... أما الخداع فثابت من اخفائك الاسم السحري لتلك المدينة اللعينة وعدم اخبار الامير بالوقائع قبل وقوعها!

أشفقت عليه:

ـــ ولكنا لا نحكي الا لنخبركم بما يقع أو وقع وان كنا لا نعلم أين ولا متى وقع أو يقع ونشير الى ذلك في مدخل كل حكاية أو نهايتها... يا ولد العوجة... يلعن!

ـــ وأما الهزء فواضح من أنك رويت له حكاية أبطالها صعاليك مثلك... يا محمد... تضحك يا ابنالعانس!

ـــ ولكن هؤلاء الذين تسميهم الصعاليك، يا سيدي، أكثر خلق الله معاناة وأغربهم رؤوسا وقلوبا وأحسن ما يتسلى به أمير أو سيد مثلك...

المهدي!؟... أغرب عن وجهي أيها الـ... ما زلت تحمل قصاصة الجريدة!؟

ـــ وأما الشتم فبين من وصفك للامير بالجاهل...

اللعنة... اللعنة... ماذا تفيد الآن اللعنة!؟

خرج الكبير بعد أن أوصاني بالصبر وحسن السيرة:

ـــ ربما يعفو عنك الأمير بعد ثوبة نصوح!

أردت أن أقول له: «قل لمولاي الامير: أنا لم أشهد حدثا واحدا من تلك الحوادث التي وقعت في تلك المدينة التي لم أكن أعلم، والله، بوجودها من قبل.. كل ما في الامر أني لم أجد ما أحكيه لكم، والدليل على هذا محاولاتي لاطالة المقدمات وتنويعها، ولكن رغبة الامير لا ترد... وبينما أنا على تلك الحال اذا بالرجل الذي اسمه محمد النفال يدخل الى المجلس ويجلس بجواري، يقول لي:: تذكر، لقد التقينا في أحد قطارات العجم وحكينا لبعضنا البعض حتى صرنا أصدقاء... ثم يهمس في أذني ما حكيت لمولاي الامير!»...

لكنني كنت آنئذ في الكيس الذي أمر الجلاد بوضعي داخله قصد القائي ليلا في شاطىء عين الفرس... والكمامة حول فمي!

وفي الكيس قلت أيضا، ولكن لنفسي:

ـــ الحمد لله على أن الحكاية انتهت بهذا الشكل: لو اكتشفوا أني لم أعد أقدر على الحكي، بعض الشر أهون من بعض!

آنئذ ظهر طيف محمد النفال من جديد:

ـــ الحكاية لم تنته بعد يا ابن شهرزاد!

فأخذت ألعن وألعن وألعن... وهو يضحك!...

الذيل والتكملة

— ع —

«عين الفرس» مدينة شاطئية صغيرة مرتفعة قليلا عن سطح الماء، في شكل هضبة تناثرت البيوت البيضاء الناصعة على جهتها المطلة على البحر، بحيث تبدو للناظر اليها من جهة الشاطىء وكأنها تتدلى، مثل باقات من الورد الأبيض، من عنان السماء. ولأن السماء تختلط بالبحر، بالنسبة للناظر اليها من احدى الهضاب الاقل ارتفاعا الملتصقة بها، فان المدينة تظهر آنئذ وكأنها البياض الذي يربط بين عمق البحر وارتفاع السماء، كما لو كانت جبل ثلج عظيما يشكل سلما يصل بين ما تحت وما فوق وما حول...

وعلى كل حال، فهذا هو انطباعي الأول عن تلك المدينة... لقد أخرجني بعض الصيادين من الكيس، ولما رأوا حالي رقوا لي ونصحوني بأن أبحث لي عن مكان، في الدور المهجورة أو مخازن السمك أو المغاور، أستقر فيه الى أن تفرج. تركتهم ورحت أقطع الشاطىء طولا وعرضا مرات عديدة محاولا أن أملأ نفسي بهذا الفضاء الجديد، ثم صعدت الى الهضبة التي تحمل البيوت فإذا بها تبدولي، وأنا في منتصف الطريق، وكأنها عنا قيد من الورد الابيض، ثم كالزربية الهائلة الناعمة إذ صرت وسط البيوت... طفت بجميع الازقة والبيوت والمحلات وكدت أتوقف عند كل بناية أطرق بابها وأسأل عن أصحابها. ثم جريت نحو الهضبة الزرقاء — وهي واحدة من تلك الهضاب الخمس الصغيرة التي تظهر كسوار تحمل المدينة — ثم نحو الهضاب الاربع الاخرى، وكنت أجلس على قمة كل هضبة أتأمل «عين الفرس» التي بدت لي — من جميع هذه القمم الخمس — كما لو كانت سفينة بيضاء بين زرقتين صافيتين... وذلك الى ما بعد العصر بقليل. ثم عدت الى الازقة والمنازل والمحلات أتفحصها فتبين لي — بما يشبه الحلم أو الرؤيا أو التذكر — أني أعرف الكثير منها! ولقد فوجئت بالناس يحيونني ويذكرون اسمي وكأني

واحد منهم، وكثيرا ما كنت أسمعهم يحكون لبعضهم البعض قصتي معلقين على ذكري ــ أو مجرد رؤيتي ــ بعبارات قصيرة من نوع «هذا هو الرجل الذي توهم بأنه صديق الامير!» أو«لم يعرف المسكين أن السلطة لا تحتاج الا الى الخدم!» و«دارت الآلة والمغفل عنها غافل!» أو«انه رجل غلبه لسانه!» الخ...

وجدتني اذن ارد تلك التحيات بأحسن منها... فاكتشفت أني أستطيع أن أتكلم: كانت الكمامة مثقوبة! وأخذ رد التحيات يجرنا الى الحديث عن تلك الوقائع الغريبة، فلم أستغرب من أن يؤكدوا لي جميعا أن الوقائع كلها حدثت بالفعل كما رويتها تلك الليلة وان أضاف الكثيرون أنها تجري كل ليلة!... كنت أصف وأنا أتصور أن محمدا يختلق ليجعلني رواية خياله وينقدني من غضب الأميرال الذي كان سيكتشف أني لم أعد قادرا على الحكي!.. إن ما يدعو للغرابة حقا، في موقف هؤلاء الناس مني ــ هو نظرتهم الى الكمامة: لم تثر لديهم أي تعليق وكأنها أمر طبيعي! على عكس ذلك الأنبوب الصغير الذي كنت أضعه بثقب الكمامة كلما أردت أن آكل أو أشرب شيئا: كانوا يضحكون بهستريا كلما أخرجت الانبوب من جيبي! غير أنه كان لهذا الانبوب الفضل في نسيان الوقائع بعض الوقت. ذلك أنهم صاروا يضحكون كلما رأوني، ولو بدون أنبوب، فلم يعد بامكاننا الحديث عن تلك الوقائع! أضف الى ذلك أني صرت أمنع نفسي من الكلام فيها كلما تذكرت أني منفي، فصارت عوامل المنع أربعة: ذلك الامر بالنفي، والكمامة، والانبوب، وقارورة السم التي لا ترى تحت الجبة، ناهيك عن تذكر المآسي!

أما محمد النفال فان طيفه اختفى اذ أكثرت من لعنه: مرة جلست في مقهى ولعنته مليار مرة!...

مع اقتراب الليل كانوا يدعونني للنوم عندهم، ولكني فضلت خلال الليلة الاولى التي قضيتها هناك أن أنام في الشاطىء لعلي أسمع الأصوات وأرى الأضواء اللعينة أو أشاهد شخصا ينزل الى البحر ولا يعود منه...

لم أسمع سوى أصوات البحر و لم أر سوى الأضواء ومراكب الصيادين

تذهب أو تعود كما تسمح الاصوات وترى أضواء المدن ومراكب الصيادين في كل مدينة شاطئية... أشياء عادية جدا!

ولم تمض الاربع والعشرون ساعة حتى كنت ملأت نفسي من هذا الفضاء العادي جدا، جدا... ما عدا جماله!

ـ ي ـ

لم يتجدد اهتمامي ـ فيما بعد ـ بقضية «ضحايا» البطيلة المفروشة بالمشوي والمحشوة ـ كما يمكن أن أتصور ـ بكل ما لذ وطاب ـ كما قلت ـ الا بفضل الصدفة ـ فيما أعتقد ـ أو فضول أخذ يتطور ـ والله أعلم ـ بالرغم مني...

فلقد وجدتني ـ أثر التطورات الخطيرة التي عرفتها تلك الحكاية بفعل عوامل كانت أقرب الى المصادفة واللامعقول منها الى المنطق والواقع وبسبب نتائج هذه التطورات في الواقع وفي حياتي الشخصية المتواضعة الهادئة، على الخصوص، ونتيجة لكل ما تعلمون، فأنا لا أقدر على تذكيركم بكل شيء ـ ألتجيء ـ تحت تأثير ذلك النوع الخفي من الدوافع الذي كان يحرك الحوادث ـ الى بيت الطاهر وفطومة لأستقر فيه من غير ما اعتراض ـ حسب علمي وقدرتي على العلم ـ من طرف أهل عين الفرس... حتى أنني ـ خلال المدة القصير، بل الدهر، التي قضيتها بينهم باعتباري غريبا عنهم! ـ شعرت ـ أو هكذا خيل الي ـ بأنهم يعاملونني كواحد منهم وبأنني ـ وقد أكون مخطئا في هذا التقدير ـ أعاملهم معاملة مختلفة ـ تمام الاختلاف ـ عن تلك التي كنت أعامل بها جيراني في المدينة الكبيرة!...

ولقد حاولت تبرير هذا التغير الذي طرأ على مزاجي برده الى أن الواحد منا ـ والواحد هنا بكثير من التجاوز لأننا انما نكرر بعضنا البعض ـ يعيش في المدينة الكبيرة ـ والأحسن تعبير القرية الكبيرة ـ تحت رحمة العديد من المنبهات التي تحيله ـ في كل ثانية أو أقل ـ من حالة الى حالة ـ من غير أن يعي ذلك أو يكون لديه الوقت ـ وهو عادة لا يفعل شيئا ـ ليشعر بها شعورا كافيا.. اضافة الى أن كل أفراد المحيط يعانون هذه التغيرات العاصفة بأمزجتهم ـ إذا بقيت لهم أمزجة ـ الى حد أن كل واحد

منهم ــ الواحد هنا مثل الحلقة في سلسلة ــ يساهم في نقل العدوى الى الآخر والرفع من درجتها حوله ــ وحوله مهيأ ــ بحيث لا يجد هؤلاء الناس عند بعضهم البعض الا العداء ونفاذ البصيرة والصبر: ليتأمل المرء «حركة» السير في احدى المدن ــ القرى الكبيرة!...

أما في «عين الفرس» فعدد السيارات يفوق عدد السكان أعني عدد البيوت، ولكن الغالبية العظمى من السكان في الخارج ــ والخارج هنا أقرب من البحر والنفس التواقة الى الماء بفعل تناقص الهواء ــ ولا شيء يزعج الا سرعة بعض السيارات والهرج الذي قد يحدثه الكلاكسون ــ لدى الكثير من الراجلين الذين يصرون على احتلال قارعة الطريق ــ.. أما الباقي فلا فرق فيه بين القرى الكبرى وما يسعى بالمدن، الا أننا في البداية نميل الى ادراك الاختلاف: تماما كما يحدث لنا مع بعض الناس قبل أن يصيروا مثل الاخرين، نسخا طبق الاصل!... لا شك أنه كان بامكاني أن أدفع التحليل، وكذلك المقارنة، الى أبعد من هذه الدرجة، ولكني اكتفيت بها لأنها كانت كافية لاعطائي تبريرا لحالة الهدوء النسبية التي سادت علاقتي ــ في بداية الامر ــ مع أهل عين الفرس، ولأني ــ كما أستطيع أن أتصور ــ لم أكن في حاجة إلى أكثر من هذا القدر من الفهم لاستيعاب تلك الحالة حتى لو كان الفهم مجرد وهم!... وبطبيعة الحال، فان هذا الفهم كان شبيها بانطباع سائح غربي يحل ببقعة من الشرق، وكأنه يعكس رغبة أو حاجة بداخلي أكثر مما يعكس واقعا، وكان دوامه اذن مرتبطا بمدى قدرتي على الاحتفاظ بعدم التصادم بين تلك الحاجة وما يسميه الناس بالواقع. غير أنه معروف أنه لا أحد يقدر على هذا الامر دائما، اضافة الى كونه غير مطلوب على الدوام لأنه إذا تمكن من النفس أدى الى ما يشبه البله أو الجنون ان لم يؤد إلى بله أو جنون حقيقيين!... إذن كان علي أن أقاوم على واجهتين متناقضتين خوفا من هذا البله أو الجنون، ولكن... هكذا بدأت علاقتي بعين الفرس الفعلية ــ الفعلية أو الخيالية!؟ ــ وأنا أخشى أن أكون مخطئا أو مبالغا في تقدير تلك العلاقة ــ لسبب أو لمجموعة من تلك الاسباب التي تدفعنا أحيانا الى الشعور بالأمن في مكان أو في حضرة انسان معين أو جماعة قبل أن نكتشف

زيف مثل هذا الشعور، ناهيك عن كون كل علاقة أولى بأي شيء من الاشياء، علاقة خادعة في أغلب الاحيان... ناهيك عن امكان اختلاط الواقع بالحكاية، عن امكان تحول الواقع الى ذيل للحكاية أو العكس!...

على كل حال، كانت علاقتي بهذه المدينة الصغيرة علاقة صدفية، وهذا سبب كاف وحده للشك في طبيعتها... علاقة مختلفة عن علاقتي بأهل المدينة الكبيرة ــ العاصمة ــ وهذا سبب ضروري لعدم الاطمئنان اليها... فقد منحوني ــ وأنا الغريب الطارىء ــ بيتا بعد أن شردت، وعوضوني عن أهلي ــ وأنا خادم الاميرال ــ بعد أن تخلى عني أهلي خوفا من بطش السلطة، وحموني من تعسفات أعوان السلطة ــ بعد أن كنت واحدا من هؤلاء ــ وكأني ابن عم لهم... أبعد كل هذا أطمئن الى هذه العلاقة ولا أشك فيها!؟ صحيح أن كل المشاكل التي تعرضت لها كانت بسبب وقائع عين الفرس، ولكن ما دخل أهلها؟ هل يحق لي أن أخلع التهمة عن الوقائع، عن نفسي عن شيطان الحكاية، لألصقها بالناس الابرياء ــ الضحايا ــ المتورطين!؟ هل أستطيع أن أتدرع بكون الناس يصنعون الحوادث لأحلهم مسؤولية ما وقع لي بسبب هذه الحوادث؟ أيصنع الناس حقيقة مثل هذه الحوادث في زماننا؟ ألا يعانونها كما أعانيها الآن؟ وأنا... هل أعانيها بالفعل، ألم يكن لي أي دور في صنعها، ولو عن طريق هذه المعاناة ذاتها؟... لقد تنكرت نفسي لنفسها... حين صرت مثل الأحمق أفعل اهتمامي غير العادي، وغير الارادي في الظاهر، بتلك الوقائع الغريبة... ولكن، ألم أكن أريدها، ألم أكن أريد كل هذا الذي حدث، ألم أكن أبحث عنه وأسعى الى تحقيقه بشكل من الاشكال بحيث لم يقدم لي ما حدث ــ عن لسان محمد ــ سوى الظروف التي شكلت المناسبة الملائمة للبدء في تحقيقه!؟ ألا نحقق ما نحلم به أو نريده... وكيف أبرر حكايته أثناء وقوعه من غير أن يخبرني أحد بأنه كان يحدث فعلا قبل وأثناء روايته!؟ أحيانا ــ وأنا أفكر في هذا السر ــ اللغم ــ بهذا الشكل ــ أشعر بأن مصائرنا بداخلنا وأن ما نسميه القدر ــ أو الصدفة ــ يوجد في أعماقنا وأننا نقضي عمرنا في البحث عن الظروف الملائمة لتحقيقه... كل الأشياء الغريبة ــ النافعة والضارة ــ التي تحدث

لنا تأتي من داخلنا... الآلهة؟ من قال انها توجد في داخلنا، ولكنا اضطررنا الى جعلها في الأعالي، الى رفعها الى أبعد ما نستطيع لأننا لا نملك من المعرفة والارادة ما يجعلنا قادرين على حملها وتحقيقها في ذواتنا ومن ذواتنا، لأننا تبدو أصغر على حمل كل تلك القوى الهائلة التي تسكننا!؟ أستغفر الله العظيم!... أغرب ما في الانسان أنه يتقدم بهذا الشكل العظيم في تحصيل مختلف المعارف بينما معرفته بذاته ــ ورغم كل المظاهر ــ لا يبدو أنها قد تقدمت كثيرا عن معرفة حيوان بجحره! لو كان للنحلة أو النملة عقل! لو كان للعنكبوت عقل... لأدرك أنه هو صانع تلك الخيوط البديعة، ولكن ماذا كانت ستفيده هذه المعرفة، في ما يخص نفسه!؟...

لا شك أن هذا التعميم يخفي بدوره تحايلا على النفس التي لا تريد أن تتحمل مسؤوليتها في ما وقع، التي ترفض أن تكون مسؤولة، أي راشدة، أي حرة، أي... لو كانت هذه النفس جبلا لهد!... هل حكيت ما وقع أم وقع ما حكيت؛ ماذا تستطيع النفس أن تعرف عن نفسها وعن خارجها اذن!؟.... مخيف حقيقة عدد الحيل التي نستعملها للتحايل على أنفسنا، ليس فقط لتبرئتها وانما كذلك لتوريطها، الحيل التي نلتجيء اليها لمسح أيدينا ليس فقط من الآخرين ولكن كذلك من ذواتنا!... انني لا أبالغ اذن في تقدير دور الارادة، فالانسان لا يستطيع أن يريد كل ما يريد ولو أراده!... اني أريد أن أقنع نفسي فقط بأنها لم تكن ضحية بهذا الشكل الذي تتصوره، والا فانها ستهلك في اللامبالاة... أنها حق اذا كانت ضحية بهذا الشكل فانها لن تستطيع أن تتجنب الموت أو الجنون الا بتحمل قدر معين من المسؤولية في ما حدث. ذلك أنه مهما قيل عن مسؤولية الانسان، أو عدم مسؤوليته، في ما يحدث له وحوله، فان حياته لن تكون قابلة لأن تعاش، ولن يكون بمقدوره أن يشعر بحد أدنى من قيمته، الا إذا تحمل بعض المسؤولية في ما يقع له وما يقع حوله، على الاقل بقدر ما يرتبط ما يقع له بما يقع حوله أو ينعكس هذا على ذاك... ما الدليل على صحة هذا القول؟... العقل!؟ لا... ان العقل ليس مقياس كل شيء، ليس المقياس الوحيد على كل حال، ولا هو أعدل قسمة بين الناس ليكون كذلك... ما المقياس؟ انه... الشعور

بالحرارة، بالقوة، بالنشاط، بالقيمة، بالمعنى الذي أحس به يجري في كل ذرة من كياني حين أصل الى مثل تلك القناعة، ذلك الشعور الذي يبدو أنه يميزني عن النملة أو النحلة وحتى العنكبوت، عن أحقر وأجل حيوان في ذات الوقت... أستطيع، فيما بعد، أن أعقلن هذا الشعور، لكني لا أفعل ذلك الا لأوصله الى غيري، ولكي أوصله الى الغير بهذا الشكل أكون مضطرا الى التضحية بجزء هام منه، ولن أستطيع أن أستعيده كلا أو جزءا الا إذا شعر غيري بمثله. انها العدوى... مثل تلك التي تنشرها الابتسامة أو التثاؤب أو الحنان... تفقد بعضها بايصالها الى الآخرين، ولكنك قد تستعيدها أقوى مما كانت في الاصل عندما يبتسم معك الآخر أو يتثاءب أو يبادلك الحنان!....

بعض الناس يتصورون أني أتفلسف الآن... الآن... أبدا، اني ما زلت أحكي، وإذا كانوا عاجزين عن ادراك الحكاية في شمولها فهذا ليس ذنبي !...

اني ما زلت أحكي... لقد انتقلت الي عدوى الاهتمام بوقائع عين الفرس، والانخراط فيها، كما ينتقل أي شيء آخر: الابتسامة أو التثاؤب أو... ما حدث لمن سبقني يحدث لي الآن، اني لم أعد اختلف في شيء عن حميد والآخرين!... العدوى... وكما ينتقل المرض أو الصحة عن طريق العدوى، فان المرء يحس بالأعراض قبل أن ينتقل الى الفهم عن طريق العقل، مع العلم أن العقل ليس ضروريا للفهم اذ يمكن الاستغناء عنه، كلا أو جزءا، بأدوات أخرى كالمخيلة مثلا... من يعقلن فيكم الحب أو الكراهية!؟ الشياطين، أولئك الذين لا يحبون سوى أنفسهم!؟... أما الاعراض فاني أعوم فيها، وأما الفهم فانه الشط الذي أسعى الآن للوصول اليه، إنه... بقعتي الضوئية النائية العميقة التي أحاول أن أسبح في اتجاهها... تدركون اذن لماذا يفرض السؤال التالي نفسه علي: ما طبيعة الأداة التي أستطيع أن أفهم بواسطتها؟... لقد استعمل الضحايا ــ الأبطال ــ كما يسميهم البعض هنا في عين الفرس ــ أجسادهم للفهم، وحاولت أن أفعل مثلهم فلم أفلح... لا ريب أن الجسد هو أكمل أداة للفهم، والمعرفة عموما، خاصة إذا عمل ككل، فلماذا يعجز

جسدي عن القيام بهذا العمل؟ يبدولي أن ذلك مرده الى ثلاث مسائل:

أولاها، اني لم أقتنع بعد بشكل تام بهذه المعرفة الكلية التي تتم عن طريق الجسد لأن معاناتي للوقائع ومضاعفاتها لم تبلغ بعد الحد الذي يؤهلني لهذه المعرفة، فأنا أعرف، كما يعرف عاشقان، أن هذه المعرفة أصعب وأعلى ما يمكن أن يصل اليه طالب علم، على الأقل من منظور بعض المتصوفة والمجانين والعشاق، أي كل المحبين!.

ثانيتها، ان الارهاب الفكري ــ العاطفي الذي مارسته على جسدي منذ الولادة، وربما قبلها، الى الآن، عن طريق أنواع الكبت والمنع وباقي السموم المادية أو المعنوية، قد أضعف جسدي وشوهه الى درجة العجز التام، وأنه يلزمني، بالتالي أن أعمل على اعادة تربيته واصلاح بعض ما أفسده الدهر لعلي ــ متعللا في ذلك بكون المعرفة عن طريق الجسد أصعب وأرقى أنواع العلم ــ أستطيع ذات يوم، بمعونة الله، التوجه الى معرفة وقائع عين الفرس بجماع جسدي!

ثالثها، أن وسيلتي المعرفية التي سعيت الى تطويرها، بواسطة الدراسة والتدريب، وأعني الحكي، قد تكون أضعفت الوسائل المعرفية الأخرى، اذ من الطبيعي، في مثل هذه الحالة، أن يتم تطور الجزء على حساب الكل وأن يقوم ذاك مقام هذا!

وعلى ذلك، فاني، لكي أتمكن من بلوغ تلك الغاية، أي المعرفة التامة، مضطر الى اخضاع جسدي لنوعين من الرياضة:

الأول، السعي، ما أمكن، الى أعلى ما أستطيع من معاناة الوقائع والتشبع بها ماضيا وحاضرا ومستقبلا!

الثاني، فحص كل الأفكار التي يمكن تفحصها والشعور بكل الأحاسيس التي يمكن الاحساس بها لا من أجل استعراضها استعراض المتأمل شبه النائم، الأمر الذي يقود الى نوع آخر من اللا مبالاة أو الموت أو المرض، وانما من أجل التجديد الدائم لعالم جسدي والتخلص التدريجي من كل

الأفكار والأحاسيس وألوان السلوك التي اكتسبتها عن طريق التقليد الأعمى والتي قادتني الى هذا العجز الذي يشل الآن جسدي. اذن سأسعى الى انجاز كل التمارين والممارسات التي تستطيع أن توصلني الى احداث دورة دموية متجددة على الدوام ودورة فكرية وحسية تتجدد على منوالها! أعرف... أعرف كذلك أن هناك عوامل أخرى، مثل شعوري بوجود نوع من التسرع في استعمال أداة الجسد من طرف أولئك الأبطال ــ الضحايا الذين عايشوا الوقائع أو يعايشونها الآن... من الثابت أن عوامل كهذه قد لعبت وما زالت تلعب دورا كبيرا في تحديد ضعف جسدي... غير أني بقدر ما آخذ هذه العوامل الخارجية بعين الاعتبار بقدر ما أرفض أن أجعل العوامل الخارجية، بصفة عامة، مسؤولة عن وضع جسدي، ليس لأنها بريئة من كل مسؤولية، فهذا ما لا يمكن أن يقبل، ولكن لأن مثل هذا التحليل يقلل من قيمة القدرة التي أشعر بها بداخلي، وقد يؤدي بي الى تلاشي الارادة... هذا هو أخطر مرض يعاني منه الناس اليوم لكثرة ما ألفوه من المسؤوليات على الآخرين، أي خارج ذواتهم، كالأسرة أو المدرسة أو الدولة أو أية مؤسسة أخرى... كالطب مثلا!.

لكل ذلك أحمل نفسي مسؤولية ما وقع لي ومسؤولية الخروج منه، غير أني، كما قلت، لا أريد أن أرتكب الخطأ النقيض بأن أجرد تلك العوامل الخارجية من كل مسؤولية... أحاول فقط أن أضعها في الدرجة الثانية بوضع مسؤوليتي ــ الشخصية والوراثية ــ في الدرجة الاولى، وذلك بالقدر الذي يجنبني الوقوع في مخاطر الطرح المغلوط للمسؤولية، مخاطر مثل الشعور المرضي بالذنب أو الاحساس المخرب بالتفوق ونرجسية التفرد أو السقوط في رومانسية أو صوفية تتستر وراء الواقعية والمسؤولية...

باختصار، هكذا أتصور ما سأقوم به لأجعل عدواه تنتقل تلقائيا أو اراديا الى الناس المحيطين بي، وهو أمر، حين أدقق النظر فيه، لا أجد فيه أكثر من استبطان للعدوى التي انتقلت الي تلقائيا من هؤلاء الناس ومحاولة اعادة اطلاقها عليهم من جديد انطلاقا من وجهة نظري أو... على الاصح...

من وضعي الشخصي قبل وأثناء العيش معهم، بفضل الحكاية أولا، ثم بفضل قرار النفي...

هذا الوضع يشبه من استيقظ ذات صباح ليجد السكان يحملون السلاح بعد أن تفرقوا الى عدة طوائف... ماذا يفعل؟ ينتظر حتفه؟ يحمل السلاح؟ مع أية طائفة؟ يختار؟ من؟ الذي على صواب؟ والوقت، هل يسمح له الوقت بالتفكير؟ هل تنتظره الاحداث ليفكر؟... غالبا ما يجد المرء نفسه في هذا الفريق أو ذاك مرميا فيه بالرغم منه، ولكنه في خضم الاحداث يضطر الى أن يفكر، قليلا أو كثيرا، من أجل ايجاد مبرر ومخرج! كيفما كان الامر، اني عندما أفكر في وضعي، من هذه الزاوية، أشعر بأني حققت تطورا كبيرا، ولكن... ما أوسع الهوة بين وضعي الراهن والغاية، وكذلك الوسائل، التي حددت لبقية حياتي القصيرة، وما أكثر العراقيل التي تعمل على تعميق تلك الهوة!... إني مثل انسان أصيب بداء عضال لم ينتبه اليه الا حين أشرف على الهلاك أو أصبحت حالته تتطلب ادخاله الى المستشفى واخضاعه لعلاج طويل وشاق من غير كبير أمل في الشفاء... غير أن مريضا كهذا ليس في حاجة الى اقناع نفسه بأن العلاج لن يفيد في الحالة التي وصل اليها، لأن هذا يعني حتفه، وانما هو في حاجة الى أن يردد في كل لحظة مع نفسه لمساعدة الجسد: «لقد خطوت أهم خطوة بقبول فكرة العلاج، وها حالتي تتحسن في كل هنيهة ببطء، ولكن بشكل أكيد!»، لأن مجرد ترديد مثل هذا الكلام يجعل حالته تتحسن بالفعل، ولأن الشعور بالتحسن، ولو البطيء جدا، يساعد الدواء، وقد يحل محل الدواء!... ان الصحة، مثل السعادة وتحصيل النجاح والمعرفة، مسألة إرادة واعية بارادتها، ومن علامات الارادة الواعية ادراك أن الارادة تلعب في ذلك الدور الكبير ان لم يكن الحاسم!

لهذا كله فان هذه الصفحات لا يجب النظر اليها بأكثر من أنها علامات ارادة تبحث عن ذاتها، وذلك بالمعاني التالية:

الاول، انها ارادة تسعى الى ممارسة ذاتها من خلال خيوط عنكبوتية لا حصر لها ولا تاريخ.

الثاني، انها ارادة تسعي، من وراء تلك الممارسة، الى معرفة أحسن بشروطها الخاصة داخل الشروط العامة.

الثالث، انها ارادة تحارب الموت، ولو بتأجيله، فأنا أعرف أن ما تبقى من العمر قليل، أو نسيانه، فأنا أدرك أن هذا القرار المعلق في عنقي لا ينبغي أن يمحو كل شيء آخر: أنا رجل منفي في انتظار الموت، ومن نسي هذا لن يفهم شيئا مما يمزقني! رجل كهذا لابد أن تكون المتناقضات زاده اليومي، جحيمه... أنا من يحكي ومن يحكى له في الآن نفسه، أنا الراوي والمروي له، كمن يكون في ساحة المعركة وخارجها في الوقت ذاته، في الحمام وخارجه، في بيته، في الشارع... أنا الكذب والصدق، الزيف والحقيقة، الخرافة والواقع، أنا... لا شيء غير متناقضاتي، وهذه الحزمة من العجز، بل... هذه ارادتي!... أنا منفي، محكوم علي بتجرع السم، لكني ما زلت متمسكا، أو أصبحت، بالبحث عن ارادتي!... من أحس ذات يوم، في عمق البحر، أنه يغرق... يفهمني!

تأملوا مثلا سلوك سكان «عين الفرس» تجاهي، فلقد وقف هؤلاء السكان، على العموم، وقفة رجل واحد الى جانبي في وجه رجال السلطة الذين جاءوا لاخراجي من بيت الطاهر وفطومة بحجة أن للبيت صاحبا سيعود وبحجة أن المنفي يجب أن يخضع للتشريد وغيرها من الحجج التي تستعمل ضد الضعفاء والمحرومين، فجمع السكان مبلغا من المال وقدموه رشوة، بل حرروا شهادة عدلية تثبت أني الاخ الشرعي الوحيد للطاهر!...

أسجل أن هذا الموقف بدا لي غريبا ومخيفا اما لأنه جديد تماما في حياتي واما لأني شعرت على اثره بأن هناك قوة أو ما يشبه القوة الخفية التي تتدخل في حياتي وتسيرها بطريقة تجعل زمامها يفلت من يدي، ولو أنه كان شعورا بدأ منذ التطورات الاولى لهذه القضية، ولو أني لا أذهب الى حد اعتبار تلك القوة نوعا من القدر أو المكتوب، ولو أنه ظل بداخلي صوت يصرخ أحيانا كثيرة ليقنعني بأني ما زلت سيد نفسي وممسكا بارادتي بالرغم من كل ما حدث ويظل يحدث بذلك النوع من الصدفة أو اللامعقول...

وللتاريخ أقول إني كثيرا ما طرحت على نفسي هذا السؤال الذي طرحه من قبلي أولئك الأبطال ــ الضحايا: ما الواقع وما اللاواقع؟ ما المعقول ولما اللامعقول؟ من يعرف الحدود الدقيقة الفاصلة بين هذا الزوج من الحدود؟ أكثر من ذلك: كم عدد الذين صار بإمكانهم، أو ما زال، أن يتعرفوا على تلك الحدود وأن يصرحوا بالفروق القائمة بينها؟... سؤال واحد يفرخ كالسرطان، بإمكاني أن أضعه على رجال السياسة، الا أنهم سيجيبونني بالخطب التي لا تبلى، وبإمكاني أن أسأل الناس البسطاء، ولكنهم يكادون أن يجعلوا من هذا الأمر وضعا طبيعيا، أستطيع أن أسأل الأدباء، ولكنهم، وهم لا يكتبون الا عنه، لا يعرفون ما يكتبون، أفضل أن أسأل التاريخ لأنه لا توجد حقيقة واحدة في التاريخ ولأن الكذب والهوى هما عماد التاريخ، على الأقل كما يكتب اليوم، في سنة 2081!... الكذب مريح وعظيم الكسب!

أما للحقيقة، وأنا أشك كثيرا في ما يسمى بسذاجة «الحقيقة»، فإني أضيف أني لم أكن مقتنعا بشيء من ذلك على وجه الدقة... أن أقتنع باللامعقول، وليكن معناه هنا ما لا يفهم بعد!؟... ولا استطعت أن أحسم في أمر من هذه الأمور اللاواقعية، وليكن معنى اللاواقعية ما لا ندرك بعد، اذ كثيرا ما كانت تصير كل هذه الأشياء واضحة ودقيقة بشكل تام في ذهني وكأنها الواقع الذي ليس بعده واقع... فأتشكك تلقائيا في وضوحها ودقتها وكأن هاتين الصفتين هما ما يلازم الغموض الذي ما بعده غموض... بينما تصير أحيانا متشابكة ومعقدة الى حد الشعور بنوع من الضباب الكثيف أو الدخان السميك الذي يملأ رأسي بكامله وكأنه حجاب ما علي سوى ازاحته لرؤية ما خلفه كما ترى الشمس بعد مرور سحابة: الحقيقة! أحيانا أخرى يبدو لي الضباب وتشابك الأشياء داخله هو الحقيقة التي يجب أن تؤخذ فورا ومباشرة!... لم يعد الواقع واقعا، زالت نشوة الحكاية، ولا المعقول معقولا، اذا انفلت مني خيط الحكاية، فما يجري في ما نسميه «الواقع» لم يكن كذلك، وما يجري في ذهني لم يكن معقولا، العقل صار ممزقا والواقع أصبح مفككا وكلاهما يتغذى من الآخر، يجد في النفي بهارا!...

وهكذا فإن الشيء الوحيد الذي كان بإمكاني المجازفة بتأكيده ــ من غير الوقوع في أخطاء كبيرة أو تناقضات غير محتملة ــ هو أني كنت دائما ممزقا بين

الصدفة والمنطق، بين الغموض والوضوح، بين البساطة والتعقيد، بين الواقع واللاواقع، بين المعقول واللامعقول، اذن بين التفاؤل والتشاؤم، بين الفهم والجهل، بين القدرة والعجز... ما أكثر المتناقضات، ليتني استطيع احصاءها!

فأين العقل من أين أجيء بالعقل الذي يدرك كل هذه المتناقضات، بل الجسد الذي يحيط بها احاطة علم قدير!؟ لقد كانت تتناسل هذه المتناقضات وتتزاحم في جسدي الى درجة تجعلني أعتبر أحيانا أن الشيء الواقعي الوحيد، بالرغم من أنه لم يكن معقولا تماما، هو هذه المتناقضات التي تخرب ذهني... أو تعيد بناءه... أو تقويته... لست أعلم حقا، فأنا لم أكن قادرا على التأكد من أي شيء من تلك الأشياء، لا الأحداث... ولا مشاعري... ولا مشاعر الناس نحوي... في «عين الفرس»!...

عقل تعود على التبسيط والتجزيء والاحكام المسبقة... وجسد من كثرة الاحباط مارس الجنس مع نساء مختلفات بطريقة واحدة لم تتغير... عاجز عن معاناة التعدد اللانهائي في الوقائع والأفكار والمشاعر... هذا كل سلاحي في مواجهة ما خيل الي منذ البداية أنه دوامة، والى عهد قريب جدا، انه عدم نعومة اللامعقول واللاواقعية... كنت كمن توحي له عينه وحركة جسده المحدودة أن ما يراه من نجوم وفضاء هو نهاية العالم التي ليست وراءها لا نهاية، وكما يشعر مثل هذا المرء بالخوف والقلق اذا حدس نقطة لا متناهية في الكبر أو الصغر من تلك اللانهاية، خفت وقلقت... لقد خفت من كل ما كان حولي وبداخلي. لذلك، كما أتصور الآن، بدا لي موقف عين الفرس مني نذير شؤم وعلامة حظ سيء: ألم أكن منفيا!؟ لماذا يعاملونني بالحسنى!؟ كنت مستعدا لتقبل ذلك الموقف على أساس أنه عقاب اضافي من السماء أو امتحان خاص، ان لم يكن تواطؤا، على طريقة بعض الناس الذين لا يفهمون جيدا كل ما يحدث لهم أو فيهم أو لهم! ثم صرت أعتبره جزءا من خطة مدبرة بعناية جهنمية ضدي ولا يشكل فيها أهل الفرس الا عناصر عميلة بالرغم منها، عناصر أقل عددا من العناصر العديدة المنتشرة في . والبحر: اننا نهلك ولا نعلم، بل نظن أننا نتطور ونزداد قوة!... لم أكتف مثل حميد بالتفكير في المريكان، وانما فكرت في الروس واليابان وأذناب هؤلاء وأولئك، وتصورت أن

الروس والمريكان يخوضون الحرب العالمية الاخيرة سرا فيما بينهم بشاطىء عين الفرس، انني سأذهب ضحية هذه الحرب اللعينة لأني الوحيد الذي يعرف تفاصيلها بعد أن ذهب الضحايا ــ الأبطال بسرها ولم يعودوا... خيل الي مرة... يا للخجل!... أني ربما كنت السبب الذي من أجله يتصارع أنصار الكتلتين من أجل سد فمه! اذن أنا خالق هذه الحرب السرية، والا ما معنى أن أكون أول من روى للملأ بعض وقائعها!؟...

حتى عرض (الرعدة) الذي كان من الممكن تفسيره مثلا بحس تاجر يعرف كيف يستميل الزبناء: «الدكان دكانك أسي محمد الى أن يفتحها الله... لا تقنط من رحمة الله، فقد عرفنا الغربة والتشرد قبلك، وقد نعرفها مرات أخرى، فلا أحد بقادر على ضمان غده في هذه الأيام الثقيلة!»، حتى هذا العرض ظهر لي سخيفا وخبيثا، وقد تصورت أنه يريد أن يشتري به ذمتي، ثم تصورت أنه عميل أو شريك في كل ما حدث لي ولغيري لأن عقليته كتاجر ــ وكأن لكل امرء عقلية ثابتة تولد من ممارسته لمهنة معينة ــ قد تدفعه الى أكل أرواح البشر اذا كان أكلها يدر عليه مالا، الى خدمة الشيطان اذا كان في خدمة الشيطان نفع لتجارته!

والواقع ــ وكأن الواقع هو هذا السديم الذي نطلق عليه هذا الاسم! ــ أن كل ذلك كان يحتمل أكثر من معنى وأكثر من تأويل أو تفسير... ولكني كنت قد انتقلت من عالم لا أحد يعرف فيه الآخر أو يهتم به الا ليستغله أو يتجسس عليه الى عالم يعرف فيه كل واحد الآخر معرفة حقيقية بسبب الفقر والبطالة والمآسي المشتركة... كنت كمن انتقل من السوق الى المسجد أو الحانة لأول مرة في حياته!

والحقيقة ــ الحقيقة!؟ يا للسخرية... ما أشد أثر الكتب الفارغة فينا! ــ أني ربما وجدت آنذاك كل هذه التأويلات ملائمة... (الملاءمة). أخيرا أجد الكلمة!... هذه هي الكلمة التي قد تكون أكثر ملاءمة من غيرها لاعطاء كل أمر من هذه الأمور، لكل شعور من هذه المشاعر، ولكل حدث من هذه الأحداث جانبه المطلق وجانبه النسبي، الخاطىء والصائب، الواقعي واللاواقعي، الخ...

كل ما حدث ويحدث ملائم... ملائم فقط! لذلك فهو صائب وحقيقي

وواقعي/ومعقول، الخ...! ... أخيرا أجد تلك الكلمة السحرية! الا أني لم أكن قادرا على التمسك بها دائما لأنها بدورها غالبا ما تحتاج الى معيار يحدد ملاءمتها، الى ما يحدد معناها اذ لا أحد بإمكانه أن يزعم أنها واحدة في كل الظروف وفي كل الأمور؛ كان لابد من حصر دقيق لمعانيها ومجالات استعمالها. وهذا ما لم أقدر على انجازه كاملا، ما لم استطع التأكد منه كلما انجزته بشكل جزئي، وكأني قد وجدت من الملائم، فيما بعد، ألا أجد معنى دقيقا للملاءمة!... فقد كان باستطاعتي مثلا أن أرد تصرف الرعدة معي الى رغبة دفينة في رد الجميل الى من أسدوا اليه جميلا حين كان متشردا وغريبا،أي الى تحقيق رغبتين متكاملتين لديه:تجسيدي المصغر للذين تشردوا بعد العز،من جهة،ومناسبة الرعدة للتخلص من ضرورة رد الجميل،من جهة أخرى، وهما شيئان كافيان لرد الاعتبار الى ذات الرعدة وجعله يشعر بالمساواة مع الآخرين ومسح يديه منهم... وربما شكلت فقط مناسبة لنفس الرعدة من أجل أن تنتقم لذاتها من أيام المحنة، أو كنت المناسبتين معا...

كان بمقدوري كذلك أن أرد سلوك أهل «عين الفرس» معي الى مجرد الحاجة الى الاعتناء بالضحايا ــ الابطال وضرورة التكفير عن شعورهم بالذنب تجاههم عن طريق الاعتناء بي شخصيا لأنهم قد ينظرون الي على أساس أني الروح الجماعية التي نجت من الكارثة وعادت لتسكن جسدي الغريب، الروح التي كانت في كل واحد منهم... الا أن هذه الزاوية من الاعتبارات كانت ستؤدي بي الى النظر الى نفسي على أساس أني مجرد ظل لحقيقة ما وفي أحسن الأحوال أني شخصية مزدوجة، تجسيد لي ولغيري، للواحد والكل، أيّ للاشيء! وهكذا فإن تفسيري لعرض الرعدة بهذا الشكل الاخير كان سيجعل مني مجرد نسخة باهتة من هذا الرجل الغريب الاطوار... أمر كان سيزيد من غربتي ويضاعف من تشردي، اذ كنت سأضيف غربته وتشرده الى غربتي وتشردي الشخصيين، فأتحول بذلك الى شبح، وأعود الى ما أردت الخروج منه: خيوط العنكبوت!... ومع ذلك يظل واضحا أني كلما تعمقت في محاولات غزل خيوط الاشياء المتشابكة للوصول الى معايير لتحديد معاني ملائمة ازدادت الخيوط تشابكا وتعقيدا وارتفعت درجة معاناتي بداخلها وكأني بنلوب! من غير أن أنتبه الى أنه قد تكون في ذلك بداية الخروج من الدوامة!...

كان بإمكاني أيضا ــ للتأكد من معاني الوقائع وأسبابها والتمييز بين الصدق والكذب فيها، بين الظاهر والباطن منها ــ أن أنظر الى كل أمر من تلك الأمور من زوايا متعددة، بهدف تعميق التحليل عن طريق المقارنة، فأنظر مثلا الى عرض الرعدة من زاوية طفولته التي لم يكن له خلالها أخ ولا أخت ولا صديق، من زاوية غربته خارج الوطن حيث عانى أقصى درجات الوحدة، ومن زاوية عقمه الذي طلق بسببه عدة نساء، ومن زاوية عمله في السفن كمنظف للمطابخ، ومن زاوية عودته الى عين الفرس وما وجده من صعوبات للاستقرار بها قبل أن يفتح الدكان، ومن زاوية وضعه كأهم تاجر في المدينة وما يفرضه عليه هذا الأمر من علاقات خاصة مع السكان، ومن زاوية علاقاته مع التجار الآخرين وما تفرضه عليه من احتياطات، ومن زاوية وضعه الاجتماعي وما يتطلبه من مسؤوليات خاصة تجاه السلطة والسكان، ومن زاوية حماقاته ونزواته، ومن زاوية أوهامه، ومن زاوية تطلعاته السياسية ومعتقداته الدينية... من كل الزوايا الكبرى أو الصغرى التي تفيد في القاء بعض الضوء على شخصيته!

وكان باستطاعتي كذلك أن أفسر تصرف أهل عين الفرس بنظرتهم الى الغريب الذي قد يكون وليا من أولياء الله الصالحين، أو مغتربا جمع قدرا من المال وعاد ــ منفيا ــ يبحث عن مكان ومساعدين لتوظيفه، أو موظفا في المخابرات متنكرا أشيع أنه منفي ليأمنه الناس، ومن زاوية تطلعهم الى قدوم رجل عليم قدير على مساعدتهم من أجل وضع حد للكارثة التي تعصف بأبنائهم وأقاربهم، أو من زاوية حاجتهم الى من يعلم ابناءهم أسرار التسلق بواسطة علوم الدنيا أو علوم الدين، أو من زاوية تعاطفهم مع شخص مسكين لم يفكر في تقلبات الزمان...

ومع ذلك، فإن الزوايا كانت تبدو لي كل مرة لانهائية الى درجة الاحساس بالدوخة، ومن ثمة بالعجز عن الوقوف على أقل قدر واف منها بمقصودي...

خلال هذه اللحظات ــ بعد أن أرى في هذا الوضع دليل صحة وألحظ فيه الثمرة الاولى لتمارين أقوم بها لاعادة تربية نفسي ــ رحت أتهم الفترة السابقة من حياتي بحجة أنها شوهت فكري ــ وأعمت بصري وبصيرتي ــ بتعويده على

المجردات التي تشبه الكلمات المتقاطعة أو غيرها من الألعاب الفكرية السخيفة... رحت أقنع فكري بأن الفكر الذي يفكر بهذا الشكل لا يمكن أن يفكر ولو ابتدع أغرب النظريات وأكثرها جاذبية وأجمل الحكايات وأقواها احتمالا!

اذن الاحساس الوحيد الذي ظل بإمكاني التمسك به كمعطى واقعي أو زائف ــ لا أعرف ــ حقيقي أو وهمي ــ لا أعلم ــ والذي ظل بإمكاني التأكد منه باستمرار ــ لأنه ثابت أو متكرر أكثر من غيره ــ هو هذا الاحساس بالتمزق، بسيطرة المتناقضات اللانهائية، بما يشبه العجز، أي بهيمنة قوة خفية، أو تكاد، قد تكوني من داخلي ــ أو من خارجي أو منهما معا ــ على مجرى الوقائع والأفكار والمشاعر. وبطبيعة الحال، فإني كنت عاجزا عن ادراك أن ما ابحث عنه من خلال تلك المعاناة هو تلك القوة ذاتها ــ لأجعلها قوتي الشخصية ــ وغير قادر على الانتباه الى أن كل جسدي يتحرك ــ ربما لا شعوريا ــ في هذا الاتجاه الاخير... كنت مثل الغريق الذي يتخبط في كل ناحية لينقد نفسه، ولكن الغريق الذي يريد أن يحول التخبط من قوة مهدورة الى قوة يستطيع التحكم فيها من أجل تسخيرها على الوجه الأحسن!

علاقتي مع معدتي ذاتها طغى عليها هذا الاحساس، فقد يمر علي الأسبوع من غير أن آكل الا السمك الذي أصطاده بنفسي والنباتات البرية التي أجنيها بيدي، أي أعيش آنئذ من الطبيعة كما يمكن لأي بدائي قادر على صنع حد أدنى من الادوات أن يعيش، بينما يمر علي مثل الوقت أو أكثر لا آكل خلاله ولا أشرب الا مما أستدينه من الرعدة أو يتبرع به علي أهل المدينة... الشيء الوحيد الذي ظل يحدد ما آكله وما أشربه هو هذا الاحساس بالتمزق، بعدم القدرة على الاستقرار على رأي أو فكرة أو شعور أو موقف. ولا أظنني في حاجة الى التأكيد مرة أخرى على أني لم أكن أرى في عدم الاستقرار هذا أية فضيلة وأني ــ آنذاك ــ كنت أشعر بنوع من الضعف أمام دوامه، كنت أعانيه ككارثة حين أقارن بينه وبين وضعية الاستقرار الكامل التي عرفتها سابقا حيث أكلت نفس الطعام وشربت نفس الشراب وكرهت أو أحببت نفس الناس... ما عدا حين أكون في مجلس الاميرال، طبعا.

حتى علاقتي بالنوم تغيرت اذ صرت أنام في الغالب ست ساعات تقريبا بينما كنت أنام تسع ساعات على الاقل يوميا، بل صار يمر علي اليومان من غير أن أذوق طعم النوم أو أشعر بالحاجة اليه بينما كان مثل هذا الحدث في حياتي السابقة يعتبر مأساة توجب زيارة الطبيب والتوقف عن العمل فورا من أجل الخلود الى الراحة التامة... هكذا اذن استمرت علاقاتي بأهل عين الفرس وعلاقاتي مع ذاتي، علاقات متقلبة، متناقضة، غير مستقرة على حال من الأحوال أو وحدة، تنتظم التشتت...

كان ذلك كفيلا، في أول الأمر، بدفعي الى الشك في كل شيء ــ كما أسلفت ــ في نفسي، في الناس الذين حولي، في كل الأمور وبدون استثناء، ولقد وقفت أكثر من مرة في وجهي أتهمه: «أنت المسؤول عن كل حوادث عين الفرس ومضاعفاتها... لابد أن تقدم نفسك قربانا لهذه القوة التي تتحكم في كل شيء ــ ما دامت موقظها بالحديث عنها ــ اذا أردت أن تكفر عما فعلت... ولاشك أنك متواطىء مع عناصر مشبوهة في عين الفرس وخارجها... قدموا أنفسكم قربانا لانقاذ ما تبقى من أبرياء في عين الفرس!». ويأبى البحر أن تهدأ أمواجه وتسكن ريحه وتصمت حيتانه لأطمئن اليه وألقي بنفسي في أحضانه!...

ربما كان مثل هذا الاحساس هو الأصل في نشوء الأسطورة، ولكن من أين لي أن أعرف ــ آنذاك ــ أني كنت أساهم في تحويل الواقع الى أسطورة، وأنا أجهل الحدود الفاصلة بين الواقع واللاواقع، وأنا أراقب قوتي تتفتت في كل الأنحاء، برا وبحرا، خارجا وداخلا: ألم أكن أظن أني أحاول أن أفك الواقع من أسر الأسطورة!؟

الأحداث نفسها لم تترك لي الوقت لمثل هذه الغاية، فقد أخذ الأشخاص يختفون من جديد، كل أسبوع بمعدل اثنين أو ثلاثة. وهذه المرة بدأت تتدخل عناصر جديدة لتعقيد الوضع. من ذلك مثلا أني رأيت الناس، وأغلبهم شباب، يذهبون ولا يرجعون كما رآهم غيري من قبل، بأكثر من رؤية العين، بما يشبه الرؤيا أو الحلم أو التذكر!

من ذلك كذلك أن رجال الدرك صاروا يأتون، بعد أن كان الأمر محدودا في الشرطة، ليستنطقوا الكثيرين منا، وقد يشتبهون في أحدنا فيعتقلونه أياما معدودة، كما تفعل الشرطة، لمزيد من التحقيق قبل أن يخلوا سبيله سراحا مؤقتا أو يحتفظوا به في الحبس الاحتياطي، الأمر الذي زرع خوفا آخر بيننا ومزيدا من عدم الثقة بين العديد من السكان: الدرك أحيانا أشد استفزازا وقسوة حتى من الشرطة السياسية خاصة في القرى والمدن الصغيرة! هذا بالضبط ما حدث معي شخصيا اذ اعتقلني رجال الدرك بدوري أسبوعا كاملا وحققوا معي بمعدل مرة في اليوم وكأنهم لم يكونوا يعرفون بأني منفي في عين الفرس بأمر من الاميرال. الا أني خوفا من أن يؤولوا المسألة تأويلا خاصا، كأن يفهموا بأني رجل انقلابي مثلا، كتمت سري... سألني أصغرهم في اليوم الأول بعد التحقق من هويتي:

ـــ هل توافقني اذا قلت لك بأننا نحن الشباب نستطيع ـــ خاصة المتعلمين منا ـــ أن نتفاهم بسهولة وبوسائل أضمن؟

سبحان مدبر الخلق: لم أر وجهي في المرآة منذ زمان، أأكون بصدد استرجاع شبابي من جديد!؟

ـــ بكل تأكيد!

ـــ اذن سأسألك بدون لف ولا دوران... اذا وعدتني بالاجابة الصريحة الكاملة!

ـــ اسأل!

ـــ ماذا تعرف عن أحداث عين الفرس؟ قل أي شيء تعرفه، فكل شيء يمكن أن يكون مفيدا بأكثر مما تتصور...

ـــ أناس ينزلون الى البحر ولا يعودون...

ـــ فقط!؟

ـــ هذا كل ما أعرف!

ـــ وماذا يحدث لهم في نظرك؟

ـــ يختفون!

لا يعودون... يختفون... لا يرجعون... هذا لا يكفي!

ـــ من المفروض أن تكونوا أعلم!

ـــ ولكنا لم نكن في عين المكان مثلك... ثم انني أنا الذي أسأل، أجب!

ـــ هذا كل ما أعلم: يختفون، يذهبون ولا يعودون!

ـــ هل تظن أنهم يذهبون ضحية شخص معين أو شيء ما؟

ـــ يذهبون ضحية البحر!

ـــ سألتك عما تظن، عن رأيك... أما اختفاؤهم في البحر فهو أمر يعلمه الجميع... أنت مواطن، يجب أن يكون لك رأي، على الأقل ظن...

ـــ في ماذا!؟

ـــ في ما يحدث بعين الفرس!

ـــ ان بعض الظن اثم، والرأي كثيرا ما يكون مجرد ظن!

ـــ هذا كلام عام، كلام مثقفين... اننا نريد آراء واقعية، ولو كانت ظنونا!

ـــ أنا أجتنب الظن لأن ديننا نهى عنه ولأن الظن ضد العلم، لا علم بظن!

ـــ طيب... قلنا انهم يذهبون ضحية البحر... وماذا أيضا غير البحر؟

ـــ قد يذهبون ضحية أنفسهم!

ـــ جيد... مثل هذا الكلام يساعدنا كثيرا... وماذا أيضا؟

ـــ قد يذهبون ضحية صوت ما أو ضوء ما ـــ خارجي أو باطني ـــ

وقد يذهبون ضحية بريق.

ـــ ماذا تعني بالضبط!؟

ـــ البحر يهمس، كالنفس، بأصوات غريبة، وهو يضيء كذلك، كالنفس، قد يشع منه بريق، نور جذاب كذلك الذي يشع من النفس أحيانا، أو من العدم..

ـــ تقصد بالعدم الشيطان!؟

ـــ لا أعرف ما أقصده بالضبط... اني أقول لسيادتكم شيئا مما يمكن أن يغريني بركوب البحر وعدم الرجوع منه، بركوب النفس وعدم الرجوع منها... والنفس أحيانا قد تضيق فترتمي في أي شيء لتتنفس أو تختنق!

ـــ تقصد السحر اذن!؟

ـــ قد يكون سحرا... بالفعل!

ـــ انك لست واثقا مما تقول، سأساعدك... هل تعني السياسة؟

ـــ صدقوني، يا سيدي الدركي الشاب، ان الأشياء من الغموض والتعقد بحيث تصير أكثر تشابكا كلما حاولت الامساك بها...

ـــ أفهم جيدا... لكن اعمل عقلك، شغل ذاكرتك على الأقل...

ـــ أحاول أن استعمل كل قواي... الا أنها تقودني الى أشياء متناقضة، غاية في التناقض والتداخل... وبشكل أعجز معه عن تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود...

ـــ ماذا تعني!؟

ـــ عدم القدرة عن تبين أين تبدأ الحوادث وأين تتوقف وكيف تتداخل وتتجاذب أو تتنابذ...

ـــ أية حوادث تقصد؟

ـــ حوادث عين الفرس، طبعا...

ـــ عنها أريدك أن تحدثني، تكلم!

ـــ وهل أستطيع أن أتبين فيها شيئا معينا لأحدثك عنه؟ لا أرى سوى أشخاص يذهبون الى البحر ولا يعودون منه!

ـــ حاول أن تشغل كل قدرة من قدراتك بمعزل عن الباقي، الذاكرة مثلا وحدها... وسترى!

ـــ حاولت ذلك بالرغم من شعوري بأنه غير ممكن... المهم أن هذا ما أعجز كل العجز عن جعله يوصل الى نتيجة، وكأن كل واحد من مصادر المعرفة يفتح أمامي بابا ضخمة لا تؤدي الى الباب التي يفتحها المصدر الآخر ولا توصل سوى الى جدران من الاسمنت المسلح...

ـــ حدثني عما تقوله الذاكرة... الى أي حائط أوصلتك؟

ـــ الى حائط الحكي!

ـــ حائط الحكي!؟

ـــ هذا حائط كحائط المبكى!

ـــ وأين يوجد؟

ـــ في مكان لم تسعفني الذاكرة بعد بتذكره!

ـــ طيب... طيب! معنى ذلك أنك مهتم بما يحدث في عين الفرس!؟

ـــ بالطبع، كبقية أهلها، ولكن ماذا بإمكاننا أن نفعل!؟

ـــ ولماذا تريد أن تفعل... ماذا تريد أن تفعل!؟

ـــ أن أفهم ما يحدث، أن أعمل أي شيء من أجل انقاذ نفسي والناس المحيطين بي...

ـــ مواطن!؟... هذا ليس شغلك!

ـــ شغل من اذن!؟

ـــ شغل الحكومة، ولا تسأل بعد الآن... أنا الذي أسألك... أنت تجيب فقط!

ـــ حاضر، ولكني أتساءل فقط: ماذا بإمكاننا أن نفعل... هل نستطيع أن نفعل شيئا لتجنب الكارثة!

ـــ قلت لك: لا تسأل ولا تتساءل... أجب فقط!

ـــ عن أي سؤال!؟

ـــ أحذرك... لآخر مرة... لا سؤال ولا تساؤل! أجبني: عن أية كارثة كنت تتحدث؟

ـــ ألا تشعر بأن هذه الوقائع الغريبة تتضاعف بشكل ينبىء بحصول كارثة!؟

ـــ أترك صيغة السؤال، قلت لك!

ـــ ولكني ان لم أتساءل لا أستطيع أن أعرف شيئا ولن أستطيع أن أفعل شيئا!

ـــ تستطيعون أن تفعلوا الكثير...

ـــ صحيح!؟

ـــ أن تمدونا بكل التفاصيل حول الوقائع، بكل شيء غريب يثير انتباهكم، بكل ما يجول في فكركم وقلوبكم...

ـــ لا أريد أن أسأل، ولكني أريد أن أعرف كيف!

ـــ الذاكرة والعينا فقط... تشاهد... تختزن... ثم تتذكر لتحكي لنا ما شاهدت!

ـــ نحن في خدمتكم يا سيدي!

وانتهى التحقيق الأولي بالتأكيد على ضرورة وأهمية تعاون المواطنين مع رجال السلطة وبالتحذير عن مغبة تجاوز العين والذاكرة واتخاذ أية مبادرة أو الدخول في مغامرة ما... وكذلك مر تقريبا التحقيق الذي أجراه معي كبيرهم في اليوم التالي باستثناء تعهدي له كتابة بالتزام الحكمة والتعقل...

وعلى هذه الصورة مرت جلسات التحقيق الخمس الأخرى التي كنت أمضي عند نهاية كل واحدة منها نفس التعهد...

الغريب في الأمر حقا أني لم أتذكر خلال ذلك الأسبوع بأكمله شيئا عن البسطيلة والمشوي أو عن أسماء الأشخاص الذين كانوا يختفون... كان كل شيء يحدث في ذهني وكأن الحوادث تجري في مسرحية بلا حدث ولا أشخاص، مسرحية خارج الاطار المسرحي تبحث لا عن مؤلف ولكن عن متفرجين يملكون شيئا آخر غير العين والذاكرة!

لهذا السبب، كم فكرت في اختلاق حوادث لا واقعية ولا معقولة، تكون مجرد انشاءات شخصية، لأن الحوادث الواقعية والمعقولة ظلت تبدو لي لا واقعية ولا معقولة بشكل تام، وكأن الأمر يتعلق بحوادث وراء هذه التي نضيع وقتنا في الاهتمام بها، وكأن هذه الحوادث التي تظهر لنا حوادث هامشية وسطحية وضعت لنا وضعا، ولكن باتقان، لكي تلهينا عما هو جوهري وحقيقي، وكأن الحوادث الواقعية ــ المعقولة فعلا من خارج هذا الكوكب ــ الذي يبدو لنا ساكنا ــ وتخضع لمنطق مخالف لكل أنواع المنطق السائد على وجه الأرض، لمنطق غير العين والذاكرة!

ولكن كيف أستقر على فكرة كهذه رغم بريقها!؟...

كل الأفكار البراقة أفكار سهلة، وكل الأفكار السهلة أفكار خادعة!...

لقد رحت أتصور أحيانا أن هناك كائنات فضائية تخدع الناس وتختطفهم، كما يحدث في بعض أفلام الخيال العلمي، وأحيانا أن هناك جماعات ــ بشرية أو مائية ــ تعيش في عمق البحر هي المسؤولة عن الاختطافات، وأحيانا أن البحر

مجرد وهم لأنه قد يكون تبخر أو تجمد أو مليء بالنفايات فأصبح يابسة لا تختلف عن يابستنا، وأحيانا أن هؤلاء الناس الذين اختفوا قد كرهوا الأرض الى الحد الذي أوحى اليهم بأن يتركوها ولو الى العدم... كم من الفرضيات تصورت!

غير أني كنت دائما أصطدم بالعجز عن التحقق منها حتى كدت أتشبث بالشك في كوني انسانا فعليا ما دمت لا أعيش على غير الفرضيات!... لكن ما أجمل هذه الفرضيات حين تنبثق الواحدة منها وتبدأ تتفتح كالوردة في الذهن، ثم تأخذ في الانتشار كالشمس حين تبدأ تشرق تدريجيا وتصعد الى عنان السماء!... ما أشد حرارتها في القلب والعين حين تبدأ تبرد وتنطفىء كالنجمة!... أي سعادة أكبر من تلك، وأي شقاء أشد من هذه!؟

هذه الحالات المتكررة من السعادة والأمل، من الشقاء وخيبة الأمل هي ما جعلني أفهم الاغراء الذي مارسته الفرضيات على المهدي ــ وربما حتى على الظاهر والآخرين، من يدري!؟ ــ والعذاب الذي سببته له... أفهم سر حماسه، سر ارتباكه، أفهم سر انهياره ــ أو اقدامه ــ اذ يجب أن يكون المرء مثل الأطلس لكي يستطيع حمل مثل هذا الثقل!...

لقد انتقل المهدي بتفكيره، وبسرعة غريبة حقا، الى مستوى الواقع اللاواقعي الذي قد يصبح واقعيا اذا ما تجاوزنا الاحداث السطحية، الهامشية، المضللة، فلا غرابة ان بدت لي آنذاك فرضياته ساذجة ولا معقولة: رجل يقرأ قصاصة جريدة قديمة تستحيل قراءتها ــ لقدمها ــ وفي الظلام! كان كمن يقرأ في كتاب لم يكتب بعد!... لتغفري يا عين الفرس لي... لنا... فنحن لا نجيء اليك أو نذهب منك الا منفيين أو معوقين!...

وها قد مضى على استقراري بها شهر، وكان آخر زمن الشتاء، ثم جاء الربيع، فبدأ السكان يقيمون حفلات ليلية لاستحضار الغائبين، لاستعطاف البحر الذي كانت قد بدأت تصله نسائم الربيع.

يوقدون نارا قوية كل ليلة سبت وسط المدينة، يذبحون خروفا ويضعونه فوق تلك النار ليشوى ببطء، يأتون بأطباق البسطيلة التي تهيأ بالبيوت، ثم يصنعون

الشاي، ثم يشرعون في العزف والغناء والرقص حتى منتصف الليل، الى أن يسمع نفس المرح آتيا من البحر ليختلط بمرحهم الحزين... حينئذ ينادى على عشرات الفتيات ليصنعن دائرة بأجسادهن حول النار، ثم تتقدم احداهن، وهي عادة أكبرهن سنا، لتقطع لَحْمة من الشواء، فيطلب منها بصوت جماعي، يشارك فيه الرجال والنساء. أن تذكر بأعلى صوتها اسم الفتى الغائب الذي سيكون لها زوجا بعد رجوعه من البحر، ثم تعطى لها شمعة داخل فانوس أخضر واناء أزرق تضع فيه اللحم، ثم تسير الفتاة نحو الشاطيء يتبعها عشرة شبان يحملون أطباق البطيلة الصغيرة وراءهم رجلان يحملان الخروف المشوي بينما بقية الفتيات يمشين وراء الرجلين وخلفهن النساء ثم الرجال يتقدمهم الشباب... الكل يغني أو يعزف ويغني... ثم يتوقف الموكب على بعد أمتار من الشاطيء من غير أن يتوقف العزف والغناء... ثم تنسل الفتاة يتبعها بقية الفتيات... تجلس الفتيات على رمل الشاطيء وهن يغنين... تصعد العروس الى الصخرة التي يظن أن الجميع قد ارتمى من فوقها في أحضاء البحر... يشتد ايقاع الغناء وتحتد الأوتار والبنادير... تدخل العروس في حالة جذبة عميقة، ثم تبدأ تدور فوق الصخرة .بسرعة... تنصرف الفتيات... يرمي الفتيان والرجلان بالشواء والبطيلة في البحر... ينصرف الجميع بينما العروس تدور بسرعة هائلة فوق الصخرة... عندما تصبح العروس وحدها تماما تتوقف عن الدوران وتدخل في نوبة نحيب... تعود الفتيات وحدهن ليجلسن حول الصخرة... تشرع العروس في النداء على عريسها باسمه واسم أمه وجدته بينما الفتيات يرددن النداء حتى مطلع الفجر... تظل تتكرر نفس الطقوس من طرف العروس ومرافقاتها طيلة الأسبوع أو الى أن تسمع عريسها يرد على ندائها من أعماق البحر... تحل محلها فتاة أخرى ومرافقات أخر اذ تزف الفتاة الى عريس آخر والأخريات ينتظرن دورهن... وكان من هؤلاء الفتيات من أعلنت أن عريسها يزورها كل ليلية محملا بالعطور واللآلىء... ومنهن من أعلنت أنها حامل!

كم أغبط هؤلاء الناس، لكم أتمنى أن أكون في مكان أي عريس، وحتى في مكان أية عروس!...

اني أشعر بالحاجة الى فعل أي شيء، أن أقتنع بأي شيء لأسند ظهري اليه

فأعمل عملا ما لفهم ما جرى ويجري، للوقوف ضد ما جرى ويجري...

مرحبا نفي الذاكرة!

مرحبا نفي القلب!

مرحبا نفي العقل... الجسد!

مرحى أيها الأميرال... أعوان الأميرال!

كنت أريد أن أقتنع بشيء أتكيء عليه، و لم أنتبه الى أني أهرب من المشكلة، من المواجهة، فأقول لنفسي: ولكن ما جدوى أن تقتنع بشيء لتدرك، بعد ذلك، وغالبا بعد فوات الأوان، أنك أخطأت وتعجلت وعليك أن تبدأ الاختيار من جديد، أنك أخذت جانبا في الاعتبار ونسيت جوانب أخرى قد تكون أهم، غلبت زاوية نظر أو فرضية على زوايا نظر وفرضيات أخرى... لمجرد أنك في حاجة الى أن تتصرف أو لمجرد أنك تعبت من التمزق، من فوضى الشك والتردد!؟

ما أدركت آنذاك أن من يفكر بهذا الشكل لن يستطيع، بأي وجه من الوجوه، أن يتصرف انه انما يعمق العجز ويبرره، فالانسان، ومهما أوتي من القوة، بل من العلم والذكاء، لن يستطيع أن يحيط بكل حوانب الاشياء التي تخصه أو تخص العالم الذي يعيش فيه، ولو فكر كل الناس بهذا الشكل لتجمد العالم وانقرض البشر!

كنت أقول لنفسي: ما جدوى كل ذلك اذن اذا كنت ستعرف فيما بعد أنك قفزت فوق الصواب والخطأ معا، فكل ما يفعل انما يتم على ضوء معنى ما من معاني الملاءمة، من المفاضلة، بعد أن أجتزىء تعسفا وأعطيت له قيمة المعيار!؟

اذن كان من الالزام ــ أو من العبث ــ في علاقتي بعين الفرس، وفي علاقتي مع ذاتي، أما القفز فوق الصواب والكذب، من أجل الفعل، واما التمزق بين مختلف الفرضيات وزوايا النظر من أجل الفهم الذي أصبح نوعا من الذريعة لتعميق العجز أو تبريره، ناسيا، بطبيعة الحال، أن الفهم فعل، أن معرفة الحوادث هي نوع من اعادة صنعها!

مع ذلك بقيت أتساءل: ولكن لماذا لا أستطيع أن أفهم برغم كل هذا الجهد وكل هذه المعاناة، ألأني أبحث عن الحقيقة، أي الحقيقة المطلقة، وهي عين ما أشك فيه، أم لأني أفصل بين الفهم والعمل وأكاد أعدهما نقيضين لا يرتفعان معا ولا يجتمعان معا، أم لأني لا أعرف بالضبط ما أبحث عنه، الأمر الذي يجعلني أتيه بين الزوايا والفرضيات وما بينها من أشكال وألوان!؟

فاتني، والحال هذه، أني أبحث عن ذاتي خارج ذاتي، وأني مشوه ومخادع وضعيف الى درجة عدم القدرة على اقتحامها والاكتفاء بالدوران حولها، والا ما معنى أن أبحث فقط في الوقائع «الخارجية»؟

فلا غرابة اذن أن أعيد عشرات المرات طرح السؤال ذاته: عن أي شيء بالضبط أبحث، وما هي الكيفية التي سأصل بواسطتها اليه، هل هي الفهم أو العمل أو هما معا؟ وماذا أستطيع أن أفهم أو أعمل؟ وما معنى الفهم والعمل؟

ظل من السهل، نسبيا، أن أجيب عن هذا السؤوال الواحد المتعدد، وقد أجبت عنه جزئيا، عبر ما سبق. غير أني اكتشفت، بعد كل اجابة، أن كل ما فعلته هو مراوغة المشكلة... فأنا أعرف أنه في المدارس وحدها تطرح المشاكل خارج سياقها الحياتي المعقد، وأنه في الكتب وحدها، خاصة في بعض الروايات، تصاغ المشاكل معزولة عن تسلسلها وتشابكها اللانهائي أحيانا وتعدد مظاهرها وأوجهها لكي يتم تَجْرِيدُها والوصول بشأنها الى حل ــ حل!؟ ــ وأنه لو رام أحد المعلمين أو المؤلفين أن يضع المشاكل في اطارها الكامل لعجز عجزا تاما عن حلها لأنه سيدوخ في متاهاتها، وقد يتخلى عن مهنته أو يفشل فيها!

فهل ألتجيء، مثل هؤلاء، الى تبسيط المشكلة، وأنا أعلم أني لا أعرفها بعد على وجه الدقة، وأني بذلك أحولها الى جثة كي يسهل اعمال المبضع فيها، والى استعمال مفاهيم ــ من تلك التي يسمونها اجرائية، وهي ملائمة فقط لأهداف محددة مسبقا في الغالب ــ وأنا أعلم أني انما أقوم باختزالها الى ما يجعلها مشكلة نظرية لكي يسهل الانقضاض عليها؟

قد يبدو الآن للبعض أني كنت أفتقر الى أهداف واعية والى ما يكفي من

التحكم في النفس، وهذا أمر لا شك فيه لأني لم أكن بلا أهداف، في البداية، ولكن كانت لي أهداف أخرى، قبل النفي، ثم صارت لي أهداف مضببة، بعد النفي، وهشة تعكس حال نفسي ذاتها في تلك الفترة، وان كان كل سعيي من أجل اصلاحها وتقويتها... كيفما كان الأمر، فان تلك «المراوغات» أو الحيل لم تكن خالية من القيمة، ولا كانت عديمة الجدوى، كما أتصور الآن، انها على أقل تقدير علامة على وجود احساس، ولا أقول الوعي، لدي بأن هذه المشكلة يجب أن يحافظ لها على طابع المشكلة. ولكي يتم هذا فإني يجب أن أمتنع عن كل محاولة تهدف الى تحويلها الى مشكلة نظرية، أي مشكلة زائفة. ثم انها دلالة على أني أحدس ميلي الى ما هو نظري وأني أعمل، ولو بلا وعي، على مقاومته والحد من غلوائه، فربما كنا نقتل كل مشاكلنا بسبب ميلنا الطاغي الى أن نجعل منها مشاكل نظرية. وهذا لا يعني أنها ليست في حاجة الى قدر ما من النظرية لاضاءتها، ولا أن كل تفكير نظري ــ فكل تفكير، كيفما كان، نظري بقدر ما ــ في المشاكل تفكير خاطىء من الاساس، وانما يعني فقط أن الميل الى النظري قد يحول أحيانا ــ خاصة عندما يزيد عن حده ــ المشاكل الى مشاكل زائفة ــ أي عامة لا خصوصية لها ــ فتأتي الحلول بدورها حلولا زائفة ــ أي عامة تحل كل شيء ولا تحل شيئا بالضبط ــ كما يعني أن كثيرا من ألوان التفكير النظري ــ أو المسماة كذلك، سواء في الصياغة أو النقد أو التطبيق ــ ما هي في الواقع سوى ألوان من أحلام اليقظة أو الهلوسة، في أحسن الأحوال، أو تمارين مدرسية تافهة، في أسوء الأحوال...

أوكد مرة أخرى أني لا أتفلسف، وانما أحكي، أحكي فقط!... المشكلة العويصة التي تعترضني بعد ذلك هي التالية: ما هو القدر الضروري من النظرية، وكيف أمنعه من أن يزيد عن حده، لتبقى المشكلة مشكلة حقيقية، بمعنى واقعية، ويأتي الحل حلا واقعيا، لا حلا نظريا، سطحيا أو زائفا أو عاما، وكيف يمكن، بالتالي، تجنب النظرية التي ليست أكثر من حلم يقظة أو هلوسة أو تمرين مدرسي؟

أعرف أن البعض يملك جوابا جاهزا عن هذا السؤال لأنه لن يتردد في شهر كلمات ــ من نوع: الممارسة أو التجريب أو وجهة النظر ــ في وجهي. لن أقسو على هؤلاء أكثر مما يقسون على أنفسهم: لماذا ــ ورغم هذا الحل السحري، هذا

الحل الجاهز الذي يجلدون به وجوهنا ــ يعانون من هذا الفشل الذريع، يبدون وكأنهم يتأخرون بدل أن يتقدموا، لماذا يتشردمون ويقتتلون ما دام الحل جاهزا وبسيطا الى هذه الدرجة!؟

ان هذا بالضبط ما أخشاه، انه ما يؤرقني ويؤدي به الى التردد والحيرة وعدم الاقدام بالرغم من أني لست على يقين كاف بشأنه، اذ ربما تكون وراءه أسباب أخرى، ولاشك أن وراءه الكثير من الأسباب، تغيب عن ذهني الآن... مثل ماذا؟

مثل أن يكون الخوف من الخطأ هو الدافع الى الخطأ، وهو الخطأ، كما يكون الخوف من الموت هو الموت... أن يكون الخوف من الخطأ آتيا من عدم القدرة على المغامرة التي لايمكن لأي فهم أو فعل أن يتم بدون قدر منها...

فأنا لا أفهم جيدا كيف باءت، لحد الآن، كل المحاولات التي قام بها الناس ــ هنا في عين الفرس ــ بشكل فردي أو جماعي، بالفشل اذ لم تؤد أية واحدة من تلك المحاولات الى الوقوف على حقيقة ما حدث ويحدث ولا الى وضع حد له ولا الى تغييره...

مزعج، بل مروع، هذا الاخفاق!... وليس من المستبعد أن يلعب دورا معينا في تحديد الحالة النفسية والفكرية التي أوجد عليها طيلة فترة النفي!

اني لست ضد محاولات الناس، فأنا أدرك أن هذه المحاولات لم تكن بدورها عديمة الجدوى تماما، ولا هي ذهبت سدى بشكل كامل، اذ مكنت الناس، على الأقل، افرادا وجماعات، من تجريبها والتأكد من أنها غير صالحة، ولو في الظروف التي أنجزت فيها وبالطرق التي تمت بها. الا أن اصرارهم على المحاولة بنفس الصيغ، واكتفائي برؤيتهم يحاولون، فيخطئون، ثم يحاولون، فيخطئون، يدفعني باستمرار الى مواجهة هذه القضية ذات الحدين: هل من الأحسن أن نحاول، فنخطىء، ثم نحاول فنخطىء، الى أن نصيب أو لا نصيب، أو أنه من الأحسن أن نتحرك ونتروى، بما فيه الكفاية، أي الى أن تصبح النتيجة مؤكدة أو شبه مضمونة، على أقل تقدير، فنربح بهذا الكثير من الضحايا والمفقودين؟

أعترف أني لم أستطع حل هذه المسألة بما يكفي من الوضوح والحسم، فأنا لم أدرك، أني انما كنت أتابع تسميم نفسي عن طريق الاهتمام بقضايا خاطئة أو ناقصة أو هامشية لكي يتسنى لي الحفاظ على ذلك الشعور بالعجز كذرع واقية ضد الانخراط في أية محاولة تَرْمي بي في خضم الحياة، أو الحوادث، كما فهمت من طرف أكثرية الناس وقتها... لم أفكر في الشيخوخة... لم أتذكر مرحلة الزهد التي كنت بدأت الدخول فيها قبل العودة الى مجلس الاميرال... لم أفكر في سنوات القطيعة الطويلة بيني وبين الناس عموما... لم أفكر ولا تذكرت أشياء كثيرة... ولكن ماذا كان بإمكان هذه الأشياء أن تفعل غير ترسيخ الشعور بالعجز!؟

لذلك بقيت على موقفي الأول، أي محاولة الاحتفاظ للمشكلة على طابعها كمشكلة حقيقية وواقعية، ولو بمعنى لا واقعية ولا حقيقية، هذا المعنى الذي أشرت اليه سابقا. وغير خاف أن هذا الاختيار لم يزد وضعي الا تأزما، وقد لا أحتاج الى التأكيد مرة أخرى على أن رؤية الناس وهم يحاولون ويخطئون، ثم يحاولون ويخطئون قد ضاعفت من شعوري بالازمة الى حد الاحساس بالدونية واللا جدوى أحيانا، ذلك الاحساس الذي يبدو أنه يريح ضميرك ــ اذ يشعرك بلا جدوى عمل شيء ما دمت عاجزا عن القيام به وما دام كل شيء يتجاوز قدرتك ــ ولكنه يعذب الضمير أيضا ــ ما دمت ترى كل تلك الكوارث ولا تستطيع أن تقدم للناس شيئا يخفف من وطأتها عليهم أو يساهم في وضع حد لها ــ فليس هناك ما هو أشد ايلاما للضمير من رؤية الناس ــ وكأنهم النمل ــ يحاولون، فيخطئون، فيؤدون ثمن خطاهم بحريتهم أو حياتهم، ثم يحاولون فيخطئون، فيؤدون ثمن أخطائهم... بينما أنت جالس في مكانك أو وسطهم تقلب المشكلة على جميع وجوهها فلا تقدر على ايجاد حل لها وحدك ولا على المشاركة في محاولاتهم وأخطائهم ودفع الثمن معهم... لا أنت معهم ولا أنت ضدهم، عمليا... انه شعور ليس فقط بالدونية والذنب، وانما بالغربة التي قد لا تطاق، ومهما كانت قدرة هذا الشعور على تبرير عجزك فانه يجعل بعضك يأكل بعضه كما في الأمراض الخبيثة، وربما كان أخطر الانواع الخبيثة لأنه قد يقتل بسرعة لا يمكن أن تتصور!...

أنا لم أنس أني كنت منفيا، وأن المنفي ليس كبقية الناس، غير أني اكتشفت

أن ذلك الاحساس هو النفي الحقيقي، فالاميرال لم يكن يهدف الى عزلي في المكان والزمان، وانما الى عزلي فكريا وشعوريا بوضعي بين أناس لا أستطيع أن أفعل من أجلهم أو معهم أي شيء ولا أستطيع أن أشعر نحوهم ومعهم بأي شعور حقيقي عقابا لي على احساسي، قبل النفي، ببعض ما كانوا يحسون به وجرأتي على ذكره له، عبر الحكاية، في مجلس مخصص للانس والامتاع!... الفضل في هذا الاحساس قد يعود الى حالة الزهد التي كنت شرعت في الدخول فيها... ألا يقول المتصوفة ان الله يكشف الحجب ليروه؟ ربما، لم يكن ما رأيت وحكيت سوى ثمرة ازالة بعض الحجب، فشكرا لك، ربي، على ازالتك الحجب حتى أرى بعض الحوادث التي تعصف بعبادك... لو أمهلوني في عزلتي وقتا طويلا!

ولكن أن ترى الناس يحاولون، يقاومون بهذا الشكل... أمر لا يريح الضمير! أكثر منه أن ترى بعضهم، أو جلهم، مقتنعا بأن المحاولات قد أوصلت أو قد توصل الى غاية!

ـ معذرة أستاذ!

ـ خير ان شاء الله!؟

ـ أرجو مساعدتك!

ـ على أي شيء!؟

ـ حميد، يا أستاذ!

ـ حميد، من!؟

ـ حميد ولد العوجة، ألا تذكره، ذلك الذي ذهب الى البحر مع رفاقه و لم يعد، تذكره!؟

ـ هل عاد!؟

ـ نعم، يا أستاذ!

ـ صحيح!؟

ـــ ليس تماما!

ـــ يعني!؟

ـــ تركته غير بعيد عن البر!

ـــ كيف!؟

ـــ أنا خطيبته، يا أستاذ، وأنا أذهب كل ليلة الى البحر أقدم اليه الهدايا وأنوح وأغني وأرقص لعله يعيد الي حميدا... استجاب لي البحر هذه الليلة، فأعاده الي... كان ثقيلا جدا، وأنا لا أملك من القوة ما أستطيع به أن أحمله الى البيت... لقد مد الي يديه أكثر من عشرين مرة، حاولت أن أنتشله من الماء، الا أني لم أقدر... بل كاد يجرني هو الى الماء!

ـــ وأين هو الآن؟

ـــ ما زال حيث رماه البحر، ولقد طرقت جميع الأبواب، كل الناس نائمون، نحن على موعد مع الفجر عما قريب، الا أنت، فهل تذهب معي الى البحر وتساعدني على استخراج حميد... انك ان فعلت لن أنسى لك هذا الفضل ما حييت... هل تذهب معي يا أستاذ، ان حميدا لن ينسى لك هذه الخدمة، والبحر لن ينساها لك، وأهلي، كل أهل عين الفرس لن ينسوها لك، هل تذهب معي يا... أستاذ!؟)

لا أثر لحميد ولا لغيره، لا قريبا ولا بعيدا من البر، وحده البحر يهدر بينما عينا البنت نهر يربط في السر بين البر والبحر...

(ـــ آسفة جدا على ازعاجك... يبدو أننا تأخرنا... كان علينا أن نعود الى هنا قبل أن يشرع الفجر في الطلوع، ولكن الفجر قد بدأ يطلع منذ دقيقة أو أكثر... دقيقة واحدة أضاعت مني حميدا، لن يضيع مني بعد الآن!

ـــ طبعا، طبعا... لن يضيع منك في المرة المقبلة!

ـــ هل أستطيع أن أطلب منك خدمة أخرى بدل هذه التي لم تستطع تقديمها

الي بسبب طلوع الفجر؟

ـــ اذا كنت أقدر عليها، بطبيعة الحال!

ـــ تستطيع، والا ما كنت طلبتها منك!

ـــ قولي وسنرى!

ـــ أنت تقرأ الكتب!؟

ـــ كنت!

ـــ قرأت كثيرا من الكتب!؟

ـــ قرأت!

ـــ تعرف الكثير اذن عن البحر!؟

ـــ لا، ليس كثيرا!

ـــ تعرف أكثر مني، على كل حال!

ـــ لا أعتقد!

ـــ تعرف أكثر من أهل عين الفرس!

ـــ لا أظـــن!

ـــ أنا لا أقرأ، وهم لا يقرأون، تسعون في المئة منهم لا يقرأون، والعشرة في المئة الباقية أخذهم البحر... لا أحد يقرأ مثلك، قرأ ما قرأت!

ـــ ربـمـــا!

ـــ معرفتك بالكتب، ومعرفتك بالبحر من خلال الكتب أحسن من معارفنا جميعا!

ـــ قد أكون على بعض المعرفة بما تقولين!

ـ أريد اذا سمحت، يا أستاذ، أن تستعمل هذه المعرفة في تسخير العفاريت التي تسكن البحر لتساعدني على استخراج حميد، وسأعطيك كل ما تريد!

ـ ولكني لست ساحرا، وحتى لو كنت...

ـ حاول، فربما نستطيع ذلك اذا تعاونا، أنا مستعدة لأكون أمتك!

ـ وكيف يمكن أن نتعاون!؟

ـ أول عفريت يطلع لك من البحر سأعرض عليه نفسي، أغويه... يضاجعني أو يتزوجني... كما يشاء... شريطة أن يستخرج حميدا من البحر!

ـ ولكنك مخطوبة لحميد!؟

ـ لن يغضب لا حميد ولا العفريت، نساء كثيرات متزوجات بواحد من الانس وآخر من الجن!... أنا المهم عندي حميد... المهم أن أحاول!

ـ آسف، لن أستطيع أن أساعدك بهذا الشكل!

ـ كلا، انك تستطيع أن تساعدني بالكثير!

ـ مثل ماذا!؟

ـ تحاول القيام بما طلبت منك، أنا أساعدك... أقول لك ما تفعل!

ـ قلت لك اني لا أقدر!

ـ ألا تقدر على المحاولة!؟ ماذا ستخسر!؟ نحاول، نجرب، يا أستاذ، قد يأتي الفرج على يديك أو على أيدينا معا!

ـ أعرف أن ذلك لن يفيد!

ـ وهل جربته!؟

ـ لا، طبعا... الا اني أعرف!

ـــ أريد اذا سمحت، يا أستاذ، أن تستعمل هذه المعرفة في تسخير العفاريت التي تسكن البحر لتساعدني على استخراج حميد، وسأعطيك كل ما تريد!

ـــ ولكني لست ساحرا، وحتى لو كنت...

ـــ حاول، فربما نستطيع ذلك اذا تعاونا، أنا مستعدة لأكون أمتك!

ـــ وكيف يمكن أن نتعاون!؟

ـــ أول عفريت يطلع لك من البحر سأعرض عليه نفسي، أغويه... يضاجعني أو يتزوجني... كما يشاء... شريطة أن يستخرج حميدا من البحر!

ـــ ولكنك مخطوبة لحميد!؟

ـــ لن يغضب لا حميد ولا العفريت، نساء كثيرات متزوجات بواحد من الانس وآخر من الجن!... أنا المهم عندي حميد... المهم أن أحاول!

ـــ آسف، لن أستطيع أن أساعدك بهذا الشكل!

ـــ كلا، انك تستطيع أن تساعدني بالكثير!

ـــ مثل ماذا!؟

ـــ تحاول القيام بما طلبت منك، أنا أساعدك... أقول لك ما تفعل!

ـــ قلت لك اني لا أقدر!

ـــ ألا تقدر على المحاولة!؟ ماذا ستخسر!؟ نحاول، نجرب، يا أستاذ، قد يأتي الفرج على يديك أو على أيدينا معا!

ـــ أعرف أن ذلك لن يفيد!

ـــ وهل جربته!؟

ـــ لا، طبعا... الا اني أعرف!

ـــ وماذا ستخسر اذا حاولت معي!؟ اننا لن نخسر أكثر مما خسرنا الآن! ثم تصور... تصور أن محاولتنا قد كللت بالنجاح... اننا سنعيد جميع الذين ذهبوا ولم يعودوا، ستصبح أهم شخصية في عين الفرس، وربما يأتيك الناس من كل الأنحاء!

ـــ قلت لك اني لا أقدر!

ـــ سأنتظرك هنا غدا، بعد العشاء مباشرة... في هذه المغارة العميقة نخوض حرب اغراء العفاريت...

ـــ قلت لك...

ـــ لا تقلها مرة أخرى أرجوك يا أستاذ، أريد أن تحاول معي، معنا جميعا... لا تفكر في الخسارة فقط... فكر في النجاح... لن نخسر أهم مما خسرنا... نحن نحاول، والله القادر!)

قد تأتي غدا وتقول لي:

ـــ يا نبي!

ـــ أو:

ـــ يا رب!

ـــ بدل:

ـــ يا أستاذ!

ولكنها حتما ستهشم رأسي كما فعلت تلك الليلة!... تلك الليلة لم أنم، ليس لأن النهار كان قد طلع، ولكن لأن خيالا أعرفه ولا أعرفه أخذ يطاردني:

ـــ «نحن نختلف عنك بكوننا لا نريد أن نربح شيئا من غير أن نخسر شيئا آخر، أنت تعودت على الربح، تريد أن تربح من غير أدنى احتمال للخسارة، ربح مضمون الحقيقة... وكأن الحقيقة منفصلة عن المغامرة والخطأ! أتظن أن مكتشفي

الحقيقة معوقون!؟ لهذا أنت ضدنا بالرغم منك!»

أمد يدي، كمن ليست له يدان، لا أمسك بأية عصا أتكيء عليها أو أهشّ بها:

ـــ «هذا التمزق حقيقة، هذا العجز حقيقة، وهذا الشعور بالذنب، وهذا الاحساس بالدونية، هذه الحقيقة التي تجعلني في صفكم بالرغم منكم، فلماذا لا ترون سوى أنفسكم!

يبتسم وجه الخيال فأتذكر وجه جدي الذي مات في «حركة»:

ـــ «ان ما يدفع الى الانهيار، سواء كان شعورا بالذنب أو بالدونية أو بالعجز ليس حقيقة، الحقيقة ايجابية، دافعة، مقوية، الحقيقة تمنح الارادة، ولو بمعنى الصحة النفسية والمحافظة عليها!»

أحاول أن أتماسك لأن العصا تهشمت أو لأن يدي تهشمتا:

« ـــ وهل هناك قوة أكبر من هذه التي تجعلك تقف فوق العدم، هل هناك ارادة أصلب من هذه التي تسمح لك بالبحث في حطام الأشياء ومتاهة المتناقضات وتعدد الزوايا؟ هذه الحقيقة، فهل أنت مبصرها خارج نفسك؟»

يغضب الخيال ويختفي هابطا وكأنه يتهاوى، أتهاوى بدوري وكأني أريد أن أتبعه أتذكر أني منفي وأعود الى نفسي ألومها على حماسها... مصيبة هذا الحماس، أتمنى ألا أتحمس لشيء أبدا، أن أكون بهدوء الموتى، بالطمأنينة المزعومة لدى بعض الحكماء، آن يخترق كياني سهم أو ذخيرة، مدفع وأظل ساكنا في ذروة تأملي السعيد!

« ـــ ترفض الاعتراف بأنك تعبت، بأنك تتمنى لو يأتي أعوان الاميرال وتقاد الى تجرع السم... الاعتراف بأن فكرة محبطة، مليون فكرة واحساس من هذا النوع، لا تساوي فكرة واحدة، احساسا واحدا... محفزا... ان أفكار الانس والجن مجتمعة لا تعادل ذرة تحفز أو تجربة اكتشاف ايجابي، ان الناس تحتاج الى أفكار محركة تقوي لديهم الارادة ولذة خوض معترك الحياة، تفتح شهيتهم للسعادة... ان كل الافكار السلبية أمراض أشد فتكا من أشد الأمراض خبثا... من كل الكوارث التي تلم

بهم... انك ضد الناس، ضد نفسك لأنك تتمسك بذلك التفكير الذي لا يشبه غير الهذيان الموصل لا محالة الى الجنون الموصل حتما الى ذروة العزلة الموصلة الزاما الى الموت...

هذا شُعُورك الدفين، ولكنك تدينه وفي نفس الوقت تحوله الى قيد اضافي لنفسك التي تأكل نفسك!»

ولكني منفي، كيف تنسون أني منفي، لست مثلكم؟

«ــ لسنا أحسن حالا منك، كلنا منفيون، لن تجد واحدا منا يشعر بأنه حر طليق في هذه المدينة أو خارجها، غير أنا نحاول..»

يا أبناء المدن اللعينة... يا شياطين... وتتظاهرون بالمسكنة!؟ ما بقيت لي بينكم سوى أيام... مع الأسف الشديد!

(ــ تعرف يا أستاذ... لو استطعنا أنت وأنا أن نذهب الى عمق البحر!؟

ــ لفعلنا ماذا!؟

ــ لعرفنا أين يذهب هؤلاء الشباب ولوجدت حميدا!

ــ تعرفين أننا لن نعود!

ــ أشدك الي بحبل طويل!

ــ فعل ذلك قبلنا غيرنا وما عادوا!

ــ نركب أحد قوارب الصيد!

ــ ذهب أقوى الصيادين وما عادوا!

ــ تفتح أحد كتبك، تجد لنا وسيلة لصنع قارب لا يقهره البحر!

ــ لا أعرف كيف تصنع القوارب!

ــ تقرأ لي وأنا أصنعه!

ـــ لن تستطيعي وحدك!

ـــ تقرأ لأهلي وهم يصنعونه!

ـــ ليس عندي كتب تنفع!

ـــ وما هذه الكتب التي معك!؟

ـــ هذه كتب للتفكير في الوجود، في... كيف أشرح لك!؟... في معنى الحياة والموت!

ـــ أنت تفكر كثيرا اذن، أما كفاك ما تفرضه الحياة من تفكير وهم، ألا تعلم أن التفكير الكثير يؤدي الى الذبول!؟ واضح اذن لماذا أنت حزين، مريض على الدوام الله يأخذ بيدك... اللهم خذ بيده يا رب!) آمين... يا رب العالمين! فها أنا قد علمت الآن معنى النفي الذي أراده الاميرال... ولماذا لم يعزلني عن الناس، ولماذا... الكمامة المثقوبة والانبوب الصغير الضيق و... تأجيل تجرعي السم... لا شك أن القارورة فارغة كما الكمامة مثقوبة!.. كما الجسد... كما العين والذاكرة والقلب!

ــ ن ــ

في هذا الجحيم الذي أخذ فجأة يطل على احدى نوافذ الجنة، في هذا المنفى الذي اتسع كما يتسع البحر حول جسد السباح... قضيت التسعين يوما المحكوم بها علي... ما أقصرها!...

مر على أجلي ثلاثة أيام، تصورت نفسي الجاهلة أن الاميرال قد نسيني اذ لم يأت أحد ليأخذني اليه، لو أنه أمرني بأن أذهب اليه بنفسي!... لم أكف لحظة واحدة خلال تلك الثلاثة أيام عن تلمس الكمامة والقارورة!...

صباح اليوم الرابع جاءنا الخبر الذي لم يفرح أحدا بالرغم من أنه خفف قليلا من الحزن الجاثم على ذرات دمنا:

«أطاح الامير صانع حظه أبو المجد بنسعيد، بمساعدة الامير سعيد حظه أبي العز بنسعيد، بنظام الطاغية، وارث حظه أبي سعيد بنسعيد، في اطار استكمال مسلسل التحرر الوطني. واستكمالا للمسلسل ذاته تم اقتسام الامارة بين أبي المجد وأبي العز. أما عين الفرس فقد أصبحت عاصمة لامارة أبي المجد في اطار تقريب الادارة من المواطنين، ذلك الاطار الذي نتمنى أن تخضع له كل المدن في المستقبل القريب!»

توقفت عملية اختفاء الناس في البحر طيلة الأسبوع التالي. وذلك لكي تعود الى ما كانت عليه من قبل!

أما أنا فلم يتوقف شعوري بالنفي لحظة واحدة. لذلك لم أخلع الكمامة و لم أكسر قارورة السم، وانما قررت أن أحكي في كل مدينة أو امارة أستطيع التسلل اليها، حكاية قديمة ــ جديدة كهذه التي حكيتها في عين الفرس، عفوا، عن عين الفرس، فلا شك أن مثل هذه الحكاية، أي نفس الحكاية، تقع في كل امارة وتحتاج فقط الى من يعيد حكايتها...

واذا أمهلني العمر قليلا، ولم يطلني أي قرار أميري، فإني سأروي للناس نفس الحكاية عندما تصبح كل قرية، بعد المدن، امارة، ان لم يروا بعد أن كل التجمعات السكانية في طريقها الى أن تصير امارة، وان كل فرد في طريقه الى أن يصبح أميرا!... وهممت بترك المدينة، فإذا طيف محمد النفال يتوجه نحوي تسبقه ابتسامته العريضة الخبيثة:

ـــ نركب أحد القطارات الى أنفسنا!؟

قلت:

ـــ وما رأيك في القوارب الصغيرة!؟

قال:

ـــ كما تشاء!

وأمسكت به من ذراعه اليسرى، ثم سرنا نحو البحر!

مكتبة الأدب المغربي

الثمن : 18،00 درهما

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء